كتاب

الغوّاص واللآلي

أو

ترجمة حياة حجة الاسلام الغزالي

GHAZZALI
A MOSLEM SEEKER AFTER GOD.
No. 312

أذا رمت الحصول على اللآلي · وإحراز المفاخر والمعالي
بترجمة حوت من كل فضلٍ · عليك بقصة الشيخ الغزالي

ألفه

المستشرق البحاثة الدكتور زويمر

باللغة الانكليزية

الطبعة العربية الثانية سنة ١٩٢٦

ملتزم الطبع والنشر مطبعة النيل المسيحية

محراب الجامع الاموي المشهور بالشام

كتاب

الغواص واللآلي

أو

ترجمة حياة حجة الاسلام الغزالي

GHAZZALI
A MOSLEM SEEKER AFTER GOD.
No. 312

اذا رمت الحصول على اللآلي وإحراز المفاخر والمعالي
بترجمة حوت من كل فضلٍ عليك بقصة الشيخ الغزالي

ألفه

المستشرق البحاثة الدكتور زويمر

باللغة الانكليزية

الطبعة العربية الثانية سنة ١٩٢٦

ملتزم الطبع والنشر مطبعة النيل المسيحية

ويطلب من مكتبتها بخان الزيت قرب باب العمود بالقدس الشريف

With the aid of A. C. L. S. M.

فهرست الغواص واللآلئ

	وجه
المقدمة (بقلم الاستاذ عبد الفادي القاهراني)	١
الفصل الاول — العصر الذهبي في الآداب العربية	٧
الفصل الثاني — ولادة الغزالي وتربيته	٣٧
الفصل الثالث — تعليمه واهتداؤه واعتزاله	٦٣
الفصل الرابع — رحلات واخريات ايامه وموته	٨٤
الفصل الخامس — مؤلفاته	١٠٤
الفصل السادس — علم الآداب كما علمه الغزالي	١٢٩
الفصل السابع — تصوف الغزالي	١٥٧
الفصل الثامن — يسوع المسيح في الغزالي	٢٠٠
الخاتمة (لمسلم استهدى فاهتدى)	٢٣٣

مقدمة

بسم الله الهادى الى الصواب

سبحان خالق الامور ومعيدها ومنشىء الديانة ومحييها . وبعد فلنا الشرف أن نقدم الى القراء مؤلفاً نفيساً سميناه «الغواص واللآلىء» وهو عبارة عن سيرة حياة حجة الاسلام الامام «الغزالي» الذي غاص في بحار العلوم والفلسفة يفتش على لآلىء ثمينة ودرر فاخرة وهـذا المؤلف تأليف العلامة البحاثة الدكتور زويمر المستشرق الامريكاني وقد أصدره أصلاً باللغة الانكليزية وسماه حضرته «مسلم يبحث عن الله» وقد طلب الي أن اقول كلمة عن أهمية الكتاب من الوجهة الدينية في البحث عن اللؤلؤة الثمينة التي هي الغاية المقصودة والضالة المنشودة لكل باحث في كل عصر وصقع ألا وهي نيل غفران الخطايا كأول خطوة في الطريق الى الله .

وليسمح لي القارىء ان انقل شيئاً مما قلته في محاضرتي الصغيرة [1] عن صاحب الترجمة . قلت :—

﴿الازمات الروحية﴾

ان خير وسيلة لمعرفة أدوار حياة هذا الاستاذ ان نتخذ كتابه «المنقذ من الضلال» كترجمة لحياته وفعلاً كان هذا من أهم اغراضه في تأليفه اياه. وعند ما نفتح الكتاب المذكور نجد فيه ذكر اربع أو خمس ازمات روحية اصابته

---

(١) «الغزالي وكتابه المنقذ من الضلال» ثمنها نصف غرش فقط وتطلب من مطبعتنا بمصر أو من موزعينا في الجهات

وما هو معنى «أزمة روحية» يا ترى ؟ هل غاب عنكم ذكر الازمة المالية التي اصابت مصر بل جميع الشرق في سنتي ١٩٠٧ و١٩٠٨ ؟ — ان الازمة هي عبارة عن شدة موقتة فقد تأتي بني آدم في بعض الاحيان فرصة للتوبة والتفكير في الآخرة وربما تأتي هـذه الفرصة فجأة وبعد ان تدوم مدة من الزمن تذهب فجأة كما اتت فيرجع الانسان الى عاداته المعهودة . على ان نتيجة تلك الفرصة تدور فاذا تاب الانسان واستغفر الله فخيراً والا فشراً لان الأزمة الروحية عبارة عن صوت الله تعالى ينادي قائلاً «هلموا يا بني آدم اتركوا ذنوبكم وفتشوا على الصراط المستقيم الذي ينقذكم من الهلاك في النار ويوصلكم الى دار السعادة الابدية»

وعلى هذا فاننا نقسم حياة الغزالي الى الأدوار الآتية وهي :—

الغفلة — اليقظة — البحث — الوصول الجزئي

(١) زمن الغفلة — يصف الغزالي حالته الاصلية بالحديث الذي اقتبسه «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» ومعنى ذلك ان اهمالهم وعدم مبالاتهم يشبه النوم أو الموت وفعلاً تسمى هـذه الحالة بالموت الروحي وهذا يوافق قول الانجيل «أموات بالذنوب والخطايا» فليست هي حالة كل مسلم مهمل فقط بل نقول انها حالة كل مسيحي غير مبال بأمر الدين ايضاً

(٢) اتى زمن اليقظة أو ادراك الحالة فحالما استيقظ الغزالي خاف وفزع . خاف من الدينونة والهلاك في النار . نعم ان الاطباء قد نسبوا ذلك الى أثر مرض كان قد اصابه لكن هؤلاء الاطباء هم اطباء الجسد لا الروح لان ذلك

خارج عن دائرة علمهم فلا يقدر الطبيب ان يرشدك الى الصراط المستقيم أو ان يشفع فيك عند الله وقت التوبة والاستغفار

عود — رأى الاستاذ ان كافة مجهوداته لم تجد نفعاً . وحيث كان له جانب عظيم مما نسميه «شجاعة ادبية» فاعترف بالشكوك التي خالجت فؤاده في ذلك الوقت فقد جاهر في كتابه «المنقذ من الضلال» بأنه ذهب مذهب السفسطة (الزندقة) مدة شهرين حتى شعر بأنه على شفا جرف هار فيئس من النجاة ويخال لي ان حالة الغزالي كحالة كثيرين من شباننا اليوم

استيقظ هؤلاء من نوم عميق وانتبهوا وسألوا عما هي فائدة دينهم الذي ولدوا وتربوا فيه. سألوا «اين الرضى والانبساط الذي عرفه آوبانا ؟ كان دينهم يكفيهم فهل يكفينا ؟» ثم تكلموا عن المغفرة التي اختبروها لكونهم استغفروا المولى تعالى ولكننا لا نعرف كيفية ذلك لاننا قد فقدنا مفتاح الطريق

هذه هي بعض الشكوك التي تحضر الشاب العصري وليست هي بعيدة عن تلك التي طالما داهمت الاستاذ الغزالي واحرجته مع انه جد واجتهد ولم يستسلم لليأس والقنوط بل بحث عن الطريق المثلى التي بها ينقذ نفسه من الهلاك

(٣) دور البحث : — قام الاستاذ بكل عزم وحزم تاركاً منصباً عالياً وايراداً طائلاً لانه اعتبر انقاذ نفسه اكثر قيمة من حفظ امواله . خرج من بغداد سنة ٤٨٨ هـ وبذلك فك كل قيوده التي طالما ربطته ومنعته حرية الفكر والتأمل

(١) — تعلم علم الكلام ثم رفضه — كان الغزالي مسلماً تقياً بمعنى الكلمة

فلم ترضه الابحاث المنطقية الطويلة التي كان الاشعري وغيره قد انشأوها واعتمدوا عليها كأنها اصل الدين ! فانه ملم بها الماماً تاماً لكنه بعد استقصاء البحث رفض علم الكلام والمتكلمين أي اساتذة ذلك العلم وازدرى بهم في كتابه ازدراء شديداً

(ب) — تحول الى الفلسفة ولسان حاله يقول ان شاء الله تعالى وجدنا المطلوب فهذه هي ضالتنا المنشودة . لكنه لم يلبث حتى نبذ جميع انواع الفلاسفة وهم الدهريون والطبيعيون والالهيون . أما النوع الاول فلأنهم رفضوا الخالق وهـذا كفر كما لا يخفى . وأما الطائفة الثانية وهم الطبيعيون فاعتقدوا ان العالم قد سار مثل ما كينة بعد صنعها أي بلا اعتماد على عناية الهية وأما المذهب الثالث فيذكر منهم اسماء سقراط وافلاطون وارسطاطاليس ويرد عليهم بأنهم انقسموا على بعضهم حتى كفَّر بعضهم بعضاً تكفيراً وقد تبعهم ابن سينا والفارابي من المتفلسفة الاسلاميين ثم يعوذ بالله من شرهم ويقر بأن «لا منقذ من الضلال هنالك»

(ج) — تعليمات الباطنية — كان الباطنيون يعتقدون ان «الخلافة الظاهرة تولاها ابو بكر والخلافة الباطنة اخذها علي وذريته» فضالتهم هي الامام الباطن وليس عندهم حديث غير ذلك لكن الغزالي تباحث معهم وفند شبهاتهم وصرح اخيراً بأن المنقذ من الضلال ليس هنالك

﴿ وصوله الى الطريقة الصوفية ﴾

اختبر جنابه كل هذه المذاهب المختلفة وسبر غورها وفهم تماماً بأنها لا تروي غليلاً فلم يضيّع وقتاً ثميناً فيها بل التفت الى طريقة اخرى فيها

وجد (حسب روايته) المعرفة الحقيقية بخلاف هذه الضلالات التي ليست الا أوهاماً واضغاث احلام

أما الطريقة التي سار فيها وانضم اليها فهي طريقة الصوفية وقد انتفعت الطريقة كثيراً بانضمامه اليها واصلاحه لها لان الغزالي كان احد الكبار الذين لا يستفيدون الا وهم يفيدون غيرهم أو كما قال السيد المسيح «أتيت لأخدِم لا لأُخدَم» وكذلك كان الاستاذ يفيد اكثر مما يستفيد

استفاد نوعاً لأنه وجد عند الصوفية رغبة شديدة لمعرفة الحقيقة وتلك الحقيقة عندهم هي الله نفسه فجل مسعاهم هو الوصول الى معرفة الله. فعبوديتهم وعشقهم وزهدهم ووجدهم جميعها منازل سفر في طريق بعيد وكل مرحلة منها دليل محسوس على تقدم المسافر في طريقه نحو الغرض

﴿ انما لم يصل وصولاً تاماً ﴾

لم يصل تماماً والعيب في ذلك ليس على المريد بل على عدم كمال الطريقة لكنه زعم انه قد وصل فانه فعلاً تلذذ ببعض ازمنة من «المعرفة» و«الوجد» (لكنها على كل حال زمنية وقتية) نعم لا شك انه جرد افكاره عن العالم تجريداً مشكوراً ولا ننكر انه استخرج من الطريقة كل ما فيها من الفوائد الدينية لكنها غير كافية لنيل الخلاص (أي النجاة) كنتيجة لاخلاصه الكلي . (اه)

قلنا ان المذكور لم يصل تماماً . نعم اننا لا ننكر عليه حقه من الاكرام لانه أجلّ الكتاب المقدس اجلالاً مشهوراً وتكلم عنه بصفة كونه منزلاً من العلي العظيم ولم يعتقد بنسخه مطلقاً وعلاوة على ذلك يتضح من الفصل

الثامن ان الغزالي طالع الانجيل باخلاص للاستفادة ولذلك فيحسن بغيره الاقتداء بقدوته . نعم واعطى لسيدنا المسيح مقاماً عظيماً . لا ننكر ذلك انما نقول ان من يقتدي بالغزالي في البحث والتنقيب عليه ان يداوم البحث وان لا يكتفي بتنيجة جزئية

ان الغزالي لم يدرك ماذا كان غرض المسيح من التطوع للموت — ليموت نيابة عن الجنس البشري — كما انه لم يشعر بأهمية قيامته من الموت ولا يخفى ان هاتين النقطتين هما الركنان المهمان في الديانة المسيحية — «موت المسيح وقيامته» وبعبارة اخرى ان سيدنا المسيح هو رئيس الموت والحياة وفي طاقته ان يهب الحياة لمن يؤمن به ويتكل عليه ومن يقبل اليه لا يخرجه خارجاً بل يعطي له أولاً غفران خطاياه وثانياً الايقان بأمور لا ترى أي الحصول على رجاء الحياة الابدية

وربّ تابع يسعى وراء متبوعه فينال اكثر منه وربّ مسلم يقرأ في هذا الكتاب فيقبل الى الفادي الهادي الى الصواب ومن استهدى فقد اهتدى

عبد الفادي القاهراني
رئيس تحرير مؤلفات المطبعة
ومديرها العام

الفصل الاول

(العصر الذهبي في الآداب العربية)

يشبه عظماء التاريخ قمم الجبال الشوامخ المتطاولة في الفضاء المطلة فوق السهول والبطاح المرئية للعين على أبعاد شاسعة والمشرفة على مناظر الطبيعة . وكل باحث في تاريخ الاسلام يلتقي باربعة من اولئك الفطاحل العظماء وهم محمد نبي المسلمين نفسه،والبخاري جامع الاحاديث المشهور ، والاشعري اللاهوتي المتفلسف المضاد لمذهب العقليين ، والغزالي المصلح المتصوف ، وقد خلف هذا الاخير آثاراً هامة باقية في تاريخ الاسلام أكثر من أي انسان آخر عدا محمد نبي المسلمين نفسه حتى قال عنه السيوطي «لو كان هناك نبي بعد محمد لكان الغزالي»

وفي اعتقادي اننا نعثر في ترجمة حياته وزوايا مؤلفاته على صورة واضحة للاسلام لانه كلما حاول المسلمون التنصل من قيود الاحاديث الثقيلة ونظاماتها الجامدة ورسميتها الظاهرة اتسع امامهم باب الفرج عن طريق التصوف . وليس من يضارع الغزالي ويدانيه بين كل الذين تعمقوا في استكشاف المعاني الروحية لتعاليم القرآن ولا في

دقائق الفرائض الطقسية الاسلامية الكثيرة «لانه استفاد من معاني الانجيل الروحية شيئاً كثيراً سيظهر اثره في هذا المؤلف ان شاء الله

فقد قال عنه السبكي : —

«هو الامام الجليل محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي أبو حامد الغزالي حجة الاسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها الى دار السلام جامع اشتات العلوم والمبرز في المنطوق فيها والمفهوم جرت الائمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لاصحاب البداية والنهاية حتى أخمد من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السها وأخمد من نيران البدع كل ما تستطيع أيدي المجالدين مسها . كان ضرغاماً الا ان الاسود تتضاءل بين يديه وتتوارى، وبدراً تماماً الا ان هذا لا يشرق الا نهارا ، وبشراً من الخلق ولكنه الطود العظيم ، وبعض الخلق ولكن مثل ما بعض الحجر الدر النظيم، جاء والناس الى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء ، لمصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء ، الى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الحقيقة بجلاد مقاله ، ويحمي حوزته ولا يلطخ بدم المعتادين حد نصاله ، حتى أصبح مبدأه وثيق العرى ، وانكشفت غياهب الشكوك فلم تكن الا حديثاً مفترى، هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره، وتجريد تراه به وقد توحد في بحر التوحيد» اه

ولئلا يخطر ببال احد ان هذا الاطناب شرقي ومبالغ فيه فها نحن نورد هنا كلمات الاستاذ دنكن مكدونالد وقد تعمق في درس الغزالي وحياته ومصنفاته أكثر من اي بحاثة آخر في الاسلام قال:—

«يصعب علينا التكهن بما كانت تصل اليه يد الاسلام من الصلابة والعنف والصرامة لولا تفوذ الغزالي فيه فهو قد أنقذه من التداعي والانهيار وفتح أمام المسلم الصادق باب حياة مستترة في الله (متتبعاً خطوات بولس رسول الله الى الامم بالتمام). وقد صادف في حياته مرارة الاضطهاد كملحد هرطوقي ولكنه اليوم يشار اليه بالبنان كأكبر استاذ للجامعة الاسلامية»

ولسهولة تفهم روح الغزالي وتعاليمه لا محيص لنا من الرجوع الى العصر الذي عاش فيه لاننا لا نفهم روح الشخص الا اذا عرفنا الاوساط (البيئات) التي اكتنفته وما تراجم العظماء الا خيوط فقط ضمن انسجة التاريخ الواسعة والغزالي من تلك الزمرة القليلة التي حملت مشاعل النور في العصور المظلمة

ولد صاحب الترجمة في طوس في خراسان من اعمال بلاد فارس سنة ١٠٥٨ ب.م وقضى نحبه سنة ١١١١ ب.م وعند ولادته كان طُغْرُلْ بك السلجوقي قد استولى على بغداد وكان هنري الرابع امبراطوراً ونيقولا الثاني بابا رومية وكان النورمنديون قد بدأوا فتوحاتهم في الغرب وكان الاتراك يكتسحون الاناضول في الشرق الادنى

وكان ايضاً من بين معاصريه في الغرب البابا هلدبراند وابيلار الفيلسوف وبرنارد الراهب وأنسلموس رئيس اساقفة كنتربري

وبطرس الناسك وفي الزمن الذي كتب فيه مؤلفه الشهير كان جودفري ملكاً (على القدس الشريف)

وكان الغزالي يناضل ويكافح في المسألة الاسلامية وتعطش القلب البشري لمعرفة الله بعد ظهور رسالة الكندي عن الايمان المسيحي (التي كتبها في عصر هارون الرشيد بنحو مئتي سنة وقبل ان يستشهد ريموندلل[1] في شمال افريقيا بنحو مئتي سنة ايضاً

وكانت حالة العالم الاسلامي وقتئذ قد تبدلت عما كانت عليه ايام سيادة العرب الفاتحين في خلافة عمر على مدينة البصرة ونظيرتها الكوفة وامسى خلفاء الدولة العباسية في القرن الحادي عشر مجرد أشباح لعز دارس أشبه بامبراطرة (اباطرة) الشرق ولم يحتفظوا بشيء فوق سيادتهم الدينية الا النذر اليسير

وقد كان الخليفة القائم بامر الله عضداً وساعداً لطغرل بك في كل فتوحاته وغزواته فاغدق عليه من القاب الشرف وآيات التبجيل والتعظيم وحياه كملك الشرق والغرب وزوجه بابنته (على خلاف

(١) شهيد بلاد تونس وكان اول مبشر بين المسلمين وتطلب قصة حياته من مطبعة النيل المسيحية او من موزعيها في الجهات

عادات الهاشميين)وفي عهد الخليفة التالي استولى الاتراك السلجوقيون على مدينة القدس الشريف

وقال نولديك (البحاثة الالماني) في مؤلفه «مقتطفات من التاريخ الشرقي» ما نصه :

«كان الاسلام حوالي سنة ١٠٠٠ ب. م في حالة سيئة اذ وهنت الخلافة العباسية وتضاءل بطشها فتضعضعت قوة العرب وتفرقت الجامعة الاسلامية الى مجموعة من الولايات الصغيرة والكبيرة ولم يكن في وسع أقواها وأمنعها وهي الدولة الفاطمية أن تشد ازر المجموعة المتفرقة لا سيما وقد كانت شيعية.:. وقد جاء هؤلاء الغزاة الرحل (الاتراك) بالخراب والدمار ودكوا صرح مدنية واسعة الاطراف ولم يفعلوا شيئاً نحو ترقية الجنس البشري بل قصروا همهم على تعضيد دين محمد — حمل الاتراك لواء الايمان الاسلامي بكل غيرة وحماس — وقد كان سهل المنال أمام قواهم العقلية—وأمسوا حماته الصادقين المتعصبين ضد العالم الخارجي ولم يلبثوا أن أقاموا دولة السلجوقيين القوية وفتحوا اقاليم جديدة للاسلام في الشمال الغربي وبعد سقوط دولة السلجوقيين ظلوا هم الشعب الحاكم المتسلط في كل ولاياتها القديمة ولو لم يوقظ الاتراك فطرة الاسلام الحربية لاحرزت الحملات الصليبية نصراً مبيناً»

وقد ولي طُغْرُل بك سلطاناً في مدينة نيسابور الملكية سنة١٠٣٨ ب.م وقال عنه جبون

«كان أباً لجنوده ورعيته وأنقذ بحسن ادارته وعدل أحكامه بلاد فارس

من ويلات الفوضى والاستبداد فأمست تلك الايادي التي تلطخت بالدماء نصيرة العدل وحامية الاسلام العام.ولم ينفك المتقشفون من الاتراك بل العقلاء منهم على السكنى في مضارب أسلافهم وكانت تلك المستعمرات الحربية من الاوكس الى نهر الفرات في حمى امرائها الوطنيين . أما الاتراك المتحضرون فقد ألهتهم المشاغل الكثيرة واستعاضوا عن التقشف والخشونة بالانغماس في الاطايب واللذات وعمدوا الى تقليد بلاد فارس وثيابها ولغتها واخلاقها وكان يرى الناظر القصور الملوكية في نيسابور ويرى أبهة الملك وفخفخة السيادة والمجد وقد اعتلى المناصب الحكومية الكبرى الاكفاء من العرب والفارسيين واعتنقت الامة التركية جمعاء دين محمد بكل غيرة واخلاص»

وقد اشتهر أول سلاطين السلجوقيين بغيرته للعقائد الاسلامية فكان يقضي وقتاً طويلاً في الصلاة ويشيد مساجد جديدة في كل مدينة يفتحها. وهو الذي ضرب على ايدي المناوئين للخليفة في بغداد وأخضع اهل الموصل وبغداد بقوة بأسه وكثرة سلاحه ولما ان استتب الامر للخليفة واستراح من مناوئة خصومه عقدت بينه وبين السلطان محالفة عمادها زواج اخت طُغْرُلْ بخليفة الرسول

وفي سنة ١٠٦٣ مات طغرل نخلفه ابن اخيه ألب ارسلان وكان اسمه يذكر بعد اسم الخليفة في الادعية العامة عند جميع المسلمين في الشرق الادنى .

وقد وصف لنا جبون عهد سلطنته بهـذه الكلمات

«رصت ربوات من الخيول التركية على تخوم يبلغ مداها ٦٠٠ ميل من جبال طوروس الى مدينة ارضروم على البحر الاسود وسفكت دماء ١٣٦٠٠٠٠ نفس من المسيحيين ضحايا باسم النبي العربي» (اهـ)

وقد تمثل في ذلك «الاسد الجبار» — وهذا معنى اسمه — صلابة الحاكم وكرمه الشرقي ، وفي عهده عانى المسيحيون أقصى صنوف الاضطهاد ، واستأصل شأفة اعدائه ومناوئيه ، ولكن اكرم مثوى العلماء والاغنياء والكبراء واغدق عليهم من نعمائه بكل سخاء وقد كان ارسلان محارباً جباراً شديد البطش منتصراً للايمان متعطشاً للجهاد ولسفك الدماء وخوض معامع القتال .

ولما استولى على عاصمة ارمينيا في ٦ يونيه سنة ١٠٦٤ أقفرت من بنيها ونعق على ربوعها بوم الويل والخراب وقد قيل في هذا الصدد:—

«سالت الدماء البشرية انهاراً وحدثت ملحمة هائلة حتى اكتظت الشوارع وسدت الطرقات بأشلاء القتلى واكوام المجندلين واحمرت مياه النهر من كثرة الدماء التي امتزجت بها وقد سيم الاغنياء من الاهلين العذاب اشكالاً وألواناً ونهبت الكنائس وسلخت جلود الكهنة وهم احياء وكان الغزالي في ذلك الوقت في الحول السادس من عمره» *

وفي سنة ١٠٨٢ اغتيل ارسلان نخلفه ملك شاه ابنه الاكبر وأخذ بالتوسع في فتوحات ابيه فيما وراء الاكسوس حتى بخارى وسمرقند ونقش اسمه على نقود مملكة التتر المتاخمة لبلاد الصين واندمج اسمه في صلواتها — وقد امتد سلطانه من تخوم الصين الى جهة الغرب والجنوب حتى جبال جورجيا وضواحي الاستانة ومدينة القدس الشريف وبساتين اليمن (بجزيرة العرب) . وقد كان ذلك الملك الراعي عاملاً في الميدان ايام السلم والحرب ولم يستسلم لشهوات النفس وحب النساء

وكان وزيره الاكبر نظام الملك وهو صاحب الايادي البيضاء في احياء العلوم والآداب ففي عهده نقحت (الرزنامة) وشيدت المدارس والكليات وتنافس العلماء والادباء لنيل الحظوة لدى الملك . وقد ظل نظام الملك هذا موضع اعجاب الخليفة وحجة الدين والعلوم مدة ثلاثين عاماً ولكن لما بلغ ذلك السياسي المحنك الثالث والتسعين من عمره — وهو صاحب الفضل الاكبر على الغزالي كما سيجيء — عزله مولاه .واتهمه اعداؤه واغتالته يد متعصب أثيم . وقد أثبتت كلماته الاخيرة براءته مما عزي اليه وكانت حياة ملك شاه بعده قصيرة الامد ضئيلة العز والابهة

وكانت اللغة العربية وقتئذ قد سادت في كل مكان وتسربت مفرداتها الى كل لغات الشرق الادنى. وكان كل جنس يحتك به العرب «يتعرب» على شاكلتهم.

وقد قال شينري : —

«ويمكننا الحكم على مقدار هذا النفوذ بمقارنة لهجة الفردوسي الفارسية بلهجة السعدي «لان الاول نبغ في أوائل القرن الحادي عشر ترى لغته وتراكيبه صافية نقية لا شية فيها ولكنك ترى في مؤلفات الثاني التي نسقها بعد هذا العصر بنحو مئتي سنة وخمسين سنة بعض الكلمات العربية متداخلة في الفارسية مع شيء من لغته الاصلية وقد أورد هذا المؤلف كثيراً من الابيات العربية كحلية يزين بها مؤلفاته مفترضاً أن قراءه يعرفون هذه اللغة المقدسة الفصيحة»

وقد امتدت طرق التجارة الى كل النواحي فاتصلت بالهند والصين في الشرق وكذا ارخبيل ملاشيا (جزر الهند الشرقية) وكانت القوافل تحمل المتاجر من أواسط آسيا وشمال بلاد العرب الى اسواق الغرب ومراكزه التجارية فكان بين اسبانيا وبلاد فارس حلقة اتصال. وقال الحريري في اطراء البصرة :—

«هي المكان الذي به تلتقي الفلك والركاب، والحيتان والضباب، والحادي والملاح، والقانص والفلاح، والناشب والرامح، والسارح والسابح، وله آية المد الفائض، والجزر والغائض»

وهي بالحقيقـة كانت الميناء والمركز التجاري لكل الاقطار الواقعة على ضفاف دجلة والفرات كما كانت مدينة الاسكندرية للغرب

ولدينا دلائل تؤيد تبادل تجارة ابقار البحر والعاج بين بلاد العرب والصين وقد ظهر مؤلف مكتوب باللغة الصينية في القرن الثاني عشر عن التجارة مع العرب ونشرت ترجمته حديثاً في مدينة لينينغراد عاصـمة روسيا . والاغرب من هذا انه قد عثر في سكندنافيا [١] على الوف من قطع النقود الكوفية يرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر مما يدلنا على ان هذا الصقع النائي في اوروبا كان على اتصال مع الشرق الادنى

ويشهد التاريخ ان آداب ذلك العصر كانت مفككة العرى لا رابطة بينها وبين الدين اسوأ مما هي عليه الآن في العالم الاسلامي . فقام فيه طغمة من الكتاب مثل الهراوي وكتبوا الشروح والتفاسير عن اعجاز القرآن ولكن لم يعبأ أحد منهم بخوض المسائل الادبية كمعاقرة الخمور سراً والتهتك في ولائم المنادمة والميل الى الاحاديث المستهجنة. ولنا دليل على صدق ما نقول كثرة ورود الفاظ الخمور والنساء والاغاني ليس في الادبيات والشعر فقـط بل في مجالس ائمة الدين

(١ هي ممالك نروج واسوج والدانمارك

والفلاسفة . وقد وقد قال هيوارت في تعليقه على «كتاب الصوامع» وهو مجموعة اشعار عن الاديرة في الشرق الادنى : —

«لا يغرب عن بلنا أنه لما عكف المسلمون على الاديرة المسيحية لم يفعلوا ذلك مسوقين بدوافع دينية تقوية بل رغبة في تحين الفرص لمعاقرة بنت الحان الامر الذي كان محرماً في المدائن الاسلامية. وقد تغنى الشعراء بتلك الاماكن المقدسة التي عاقروا فيها بنت الحان وأطفأوا لوعة لذاتهم»

وكان كل من يتصدى للعتب أو الكتابة ضد هذا الفساد العام يتحمل تبعة أليمة . ولان القوة كلها كانت في ايدي المرائين فلم يكن للمصلحين شأن يذكر

قيل عن ابن حمدون (١١٠١—١١٦٨) انه لما حمل حملة شعواء على المساوئ التي رآها حوله في بغداد عُزل من وظيفته(كاتم اسرار الحكومة) وأودع السجن حيث قضى نحبه . وكانت العقوبات صارمة وبتر السيقان نظير جرائم السرقة طبقاً لشرائع القرآن من الامور العادية الجارية حتى كان كل مبتور ومجدوع موضعاً للريب والشبهات . وقد روي عن الزمخشري انه اصيب في احدى رجليه بداهمة من الصقيع في الشتاء حتى اضطره الحال الى بترها واستبدالها برجل خشبية ولكنه كان يحمل معه دائماً شهادة مكتوبة موقعاً عليها

من شهود كثيرين جاء بها أنه فقـد ساقه في حادثة ألمت به وليست عقاباً على جريمة اتاها

ويؤخذ من اقوال البيهقي مؤرخ بغداد أن الغيرة للايمان كان يصحبها غالباً تهاون شديد للشريعة الاسلامية المختصة بتحريم المسكرات ولم يكن ادمانها قاصراً على الجنود والضباط بل السلطان مسعود نفسه طالما عاقرها في حفلات مع صحبه وخلانه في الخفاء وهاك مشهد وقع في غازني عاصمة ولاية خراسان :

«جيء من السرادق الى الحديقة بخمسين قدحاً وقنينة من الخمر وبدأوا بادارة الكؤوس فقال الامير «لنشرب باعتدال وبأقداح متساوية» ولم تلبث أن لعبت برؤوسهم نشوة الخمر وشرع المغنون والشعراء ينشدون. شرب أحد الندماء خمسة أقداح كبيرة — يسع الواحد منها اكثر من نصف لتر — وبعد السادس دارت رأسه وبعد السابع فقد شعوره وبعد الثامن حمله عبيده. اخذ الطبيب محمولاً بعد القدح الخامس اما خليل داود فشرب عشرة وسيابيروز تسعة واخذ كل منهما محمولاً الى داره. امتنع الحاضرون الواحد بعد الآخر حتى بقي السلطان والخواجه عبد الرازق. وبعد ان شرب الخواجه ثمانية عشر قدحاً نهض وقال «لو شرب عبدك شيئاً آخر لأضاع رشده واحترامه لجلالتك»

تمادى مسعود وحده في تناول الاقداح حتى جاء على سبعة وعشرين قدحا ثم قام وطلب الماء وبساط الصلاة واغتسل وتلا صلاة الظهر المتأخرة

والغروب معاً بكل هدوء وسكينة كأنه لم يذق شيئاً ثم امطى فيله الى القصر»

قتل مسعود سنة ١٠٤٠ واحتفظ أولاده وأعقابه بهذا الصقع من العالم الاسلامي قرناً من الزمن ولكن باتت غازني مجرد ولاية خاضعة للسلطان ملك شاه بعد ان كانت عاصمة ملك واسع الأطراف كبير الجاه

وكان القرن الحادي عشر فاتحة عصر جديد لامم اوروبا الغربية فيه بدأت بتنظيم حكوماتها والاخذ باسباب المدنية حتى بان نفوذها في الاوطان وخارجها ولو ان طبقات الشعوب كانت لم تزل باقية في أحط طبقات الوحشية . وقد لاحت بين طبقات الاكليروس والاشراف بوادر النظام والمدنية والاصلاح الاجتماعي ولكن قال احد الكتاب ان ظهور الشعائر الدينية القوية جنباً لجنب مع ضروب التعسف والاختلال والميول الوحشية كان من خواص ذلك العصر . وكانت تكتسي هذه الشعائر غالباً بثياب الخرافات والتعصب وتأدية الواجبات الفرضية وأخصها زيارة القبر المقدس . فكم من ألوف غامروا بحياتهم وصحتهم وثروتهم رغبة في الوصول الى المدينة المقدسة بنفس الغيرة والتضحية اللتين نشاهدهما اليوم (قبل قيام الحرب العظمى) في الغيورين من حجاج الروس

ولما استولى الترك على آسيا الصغرى، وسوريا أوصد باب بيت المقدس وفي سنة ١٠٨٦ (وكان الغزالي وقتئذ قد بلغ الحول الثامن عشر من عمره) ذبح الغزاة ثلاثة آلاف من هؤلاء المسيحيين ومن ذلك العهد أمسى حكمهم سلسلة مظالم وتعسف خلواً من كل مظاهر الرحمة والحنان. فقد روي عنهم بأنهم جروا البطريرك من شعور رأسه وألقوه في سجن مظلم قذر وأهانوا رجال الدين من كل طائفة وساموا الحجاج البؤساء كل صنوف المذلة والاحتقار

وقد أثارت هذه المعاملة الشائنة سخط الغرب وألهبت فيه نار الحقد والغيظ فزار بطرس الناسك نفسه مدينة القدس وعاد الى اوروبا لاستنهاض الامم فجردت الحملة الصليبية الاولى التي اشترك في تجريدها البابا اوربان الثاني واندفع الى أواسط اوربا عن طريق نهر الرين فالدانوب ثلاث مئة الف من الفلاحين نصفهم عزل عراة ولكن لم يصل الى شواطئ آسيا الا ثلث هذا العدد الخفير وهناك لاقوا حتفهم على بكرة أبيهم ولم يوقف لهم الا على أكداس من العظام البالية فلم يبقوا في بلادهم ولم يصلوا الى أغراضهم

ثم جردت حملة اخرى منظمة ضمت تحت لوائها زهرة شبان اوربا تحت قيادة جودفري وقيل انها استعرضت في سهول بثينية

فبلغ مجموعها نحو مئة الف فارس كاملي العدد والسلاح ونحو ست مئة الف من المشاة . وربما كانت هذه الارقام مبالغاً فيها أو ان صفوفها قد نقصت بفعل الاوبئة والمجاعات ولكنها في أقل من ثلاث سنوات وصلت الى بغيتها العظمى . وفي سنة ١٠٩٧ حاصرت مدينة نيقية واستولت عليها ثم تقدمت الحملة الظافرة نحو انطاكية وضربت حولها نطاقاً من الحصار بعد سبعة أشهر كلها تعب ونصب . وفي سنة ١٠٩٩ وقفت على ابواب اورشليم فسلمت المدينة المقدسة بعد حصار دام اربعين يوماً . وهنا انتقم الافرنج بلا رحمة ولا شفقة للآلام الكثيرة والمظالم الرائعة التي حلت بدينهم وأبناء جنسهم فأحرقوا اليهود في مجامعهم وقتلوا نحو سبعين الفاً من المسلمين بحد السيف وأعملوا معاول النهب والتخريب والمذابح ثلاثة أيام متوالية في المدينة كلها حتى انتشرت الاوبئة من جراء تعفن اشلاء القتلى

وأخذ جودفري وخلفاؤه في توسيع نطاق فتوحاتهم حتى لم يبق في حوزة المسلمين من مدائن سوريا سوى حلب ودمشق وحماة وحمص وعم الكمد والحزن والخجل أتباع النبي العربي في كل مكان وتاقت نفوسهم ان يمحوا هذا العار الذي لصق بدينهم

ويقول ميور في تاريخه [١] في سنة ٤٩٢ هجرية :—

«ساد الذعر في كل انحاء البلاد من جراء الاستيلاء على بيت المقدس ومعاملة سكانها بالقسوة والعسف فجال الرسل في كل مكان منادين بهذه المأساة المحزنة ومشعلين نيران الانتقام ومحرضين الناس على الجهاد لانتزاع قبة الصخرة والمسجد الاقصى و(مهبط انبياء بني اسرائيل) من ايدي الكفرة ومهما كان مقدار نجاح هذه الدعوة في البلدان الاخرى فانها لم تلق رواجاً في الشرق وقد كان وقتئذ منغمساً في مشاغله واضطراباته ولم يكن ليعبأ كثيراً بالاماكن المقدسة لسيادة الدولة الفاطمية فيه . وفي خلال ذلك كانت جموع المنفيين تلجأ الى بغداد وهناك ناصروا سكانها واستصرخوا الامة لاثارة حرب ضد الافرنج فلم تلق صرخاتهم آذاناً صاغية لا من السلطان ولا من الخليفة . وقد احتشد الثوار مرتين في صلاة الجمعة في المسجد الاكبر وتعالت أصواتهم بالصخب والهياج وحطموا منبر الخليفة وعرشه ونادوا بالويل والثبور ولكن اقتصر جهادهم عند هذا الحد ولم يجهز الجيش»

وقد كانت الاحقاد الدينية سائدة في تلك الايام بين المسلمين أنفسهم فاليوم مثلاً ترى المذاهب الاربعة في وفاق يعبدون الله معاً ويعيشون معاً في سلام كجيران ولكن في ذلك العصر كانت المنازعات على اشدها بين المعاهد المناظرة لبعضها وقامت المناقشات والمجادلات حتى اتسعت شقة الخلاف وبلغت الكشاحة والبغضاء مبلغاً عظيماً

(١) تاريخ سقوط الخلافة للسير وليم ميور المستشرق الشهير

من الشدة بين المذاهب حتى سطر مركوهند المؤرخ الفارسي حقيقة يبين فيها ما وصلت اليه الحفائظ والاحقاد من الشـدة قبيل انتهاء الخلافة فانه لما وقف مغول جنكيز خان أمام مدينة الري ألفوها منقسمة الى حزبين متنافسين هما الشافعيون والحنفيون فدخل الاولون مع المغول في مخابرات سرية وارتضوا ان يسلموهم المدينة ليلاً على شرط ان يذبح المغول أتباع الحزب الآخر فقبل المغول هذه المقترحات غير محجمين عن سفك الدماء ولما دخلوا المدينة ذبحوا أتباع مذهب أبي حنيفة بلا رحمة ولا شفقة .

وفي مثل هـذا الوسط . وسط البغضاء والاحقاد والحروب وسفك الدماء قضى الغزالي اخريات ايامه فنلتمس له العذر اذا لحظنا فيه شيئاً من التعب والضغينة لان اتجاه الميول نحو الحروب تطمس الحكم البشري وتجعل محالاً ان يرى الناس فضيلة في الغزاة الفاتحين

ولا يغرب عن اذهاننا ان الغزالي احتك بالمسيحيين الشرقيين منذ حداثته [1] وكانت المسيحية قد استوطنت في بلاد فارس قبل الفتح الاسلامي وقويت الكنيسة النسطورية على احتمال صدمات

(١) احتكاك المسيحيين بالاسلام في عهد الغزالي امر مشهود له. انظر سيرة حياة يوحنا الدمشقي (المنصور) وايضاً رسالة الكندي المشهورة

رائعة في الوقت الذي انهارت فيه الديانة الفارسية [١] ولم يكن دخول العرب في نظر المسيحيين سوى استبدال سادة بآخرين وظل النسطوريون في حماية الخلفاء ولم يكونوا قد تدهوروا الى مثل حالتهم التعسة التي هم عليها الآن بل ثابروا على ادارة البعثات الاجنبية وكانوا في حكم الدولة العباسية من اكبر عوامل المدنية في الشرق فسمح لهم باعادة كنائسهم لا ان يشيدوا كنائس جديدة وحرم عليهم حمل الاسلحة وركوب الخيل الا في الاحوال الاضطرارية وحتى في هذه الحالة كانوا يترجلون عند مقابلة المسلم . وكانوا دائماً عرضة لضريبة الرأس العادية . ومع ذلك كله كان النسطوريون اقوى الهيئات الغير الاسلامية إبان حكم الخلفاء في بغداد(٧٥٠—١٢٥٨) وتسامت مدنيتهم فوق مدنية سادتهم فكانوا يعينون في الوظائف الحكومية كاطباء وكتبة وكاتمي اسرار حتى عظم نفوذهم وقويت شوكتهم ونالوا حرية في المسائل الدينية وانتخبوا بطاركتهم الخ .

والعلوم العربية التي انتقلت الى الاندلس وكانت من أكبر العوامل في علوم ومعارف القرون الوسطى انما الفضل فيها للنسطوريين أهل بغداد فهم الذين سلموا لسادتهم العرب العلوم اليونانية الموروثة

(١) كانت عبادة أرمزد ومؤسسها زرادشت

عن الترجمات السريانية ولذلك ترى الخلفاء يعاملونهم كرؤساء الهيئات المسيحية ويعطون للبطريرك النسطوري في بعض الاحايين سلطة مدنية على المسيحيين قاطبة

وفي اوائل القرن الحادي عشر ذكر البيروني — وهو كاتب مسلم من حيفا — النسطوريين كأعرق الهيئات المسيحية الخاضعة للخليفة في المدينة فقال بأنه يوجد ثلاث طوائف من المسيحيين هم المالكيون والنسطوريون واليعاقبة «وأكثر هؤلاء عدداً هم المالكيون والنسطوريون لان اليونان والبلاد المجاورة لها آهلة بالمالكيين واغلب سكان سوريا والعراق وبين النهرين وخراسان من النسطوريين» .

قضى الغزالي العقدين الاولين من عمره في خراسان فهل عرف المسيحية من اطلاعه على الانجيل ؟ نحن نعلم بان الترجمات العربية ان لم نقل الفارسية كانت موجودة في ذلك العصر ومؤلفات الغزالي طافحة بالشواهد عن المسيح وتعاليمه وليس ذلك فقط بل هناك عبارات دقيقة يصح ان يقال عنها اقتباسات حرفية بدليل قوله كما سيجيء «اني رأيت في انجيل عيسى الخ» (رسالة ايها الولد وجه ١٠)

ومن المحتمل جداً ان يكون الغزالي قد حصل على ترجمات

للكتاب المقدس باللغة العربية فقد اشار الدكتور كلجور [١] الى وجود نسخ خطية عربية من الانجيل يرجع تاريخها الى القرن التاسع وترجمات من العهد القديم وأجزاء من العهد الجديد نسخت في الفيوم قبل سنة ٩٤٢ ب.م — وتوجد ترجمات لبعض اسفار الكتاب المقدس من السريانية والقبطية يرجع تاريخها الى القرن العاشر وكذا ترجمات جديدة لاسفار موسى الخمسة

اما النسخ الخطية باللغتين العربية والسريانية فوفيرة العدد ومنها نسخة البشائر الاربع التي حفظت بعض وريقاتها حتى اليوم في المتحف البريطاني والتي جاء بها تشندروف من احد الاديرة في سوريا

وفي اوائل القرن الحادي عشر قام احد علماء العرب بترجمة كتاب تاتيان واسمه Diatessaron اي اتفاق البشيرين التي ساعدت الكنيسة المسيحية على تفهم الحقائق الاولية الخاصة بمخلصنا. ثم أعدت ايضاً في اواسط ذلك القرن ترجمة للمزامير لاستعمالها في الخدمات الكنائسية لليونان الباوبين وهذه نقلت عن الترجمة اليونانية وأخذت اسم المحل الذي طبعت فيه اولاً فصارت معروفة بمزامير حلب. فمسألة فحص الغزالي للعهد الجديد سواء كان في سفراته او أثناء

(١) رئيس قلم الترجمة لجمعية التوراة

اقامته في خراسان لا تزال من المسائل الهامة التي امامنا في هذا الموضوع

يروى ان اليهود نقلوا نواميسهم الى الفارسية حوالي سنة ٧٢٨ ب م فمن الصعب جداً تبرئة مسيحي فارسي من هذه التبعة وقد اتسع الوقت لمطارنتهم فالفوا الرسائل العامية بالعربية والفارسية وترجموا مؤلفات ارسطو ولكنهم قد اهملوا ابراز كتابهم المقدس للمسلمين غير ان الكندي وامثاله ممن اختفت اسماؤهم ومؤلفاتهم لم يجبنوا عن التفوه بشهادتهم في مجالس الخلفاء فقال ويتلي : —

«لم تفشل الكنيسة في بسط بعض نفوذها على الاسلام حولها مهما تقاعد المسيحيون عن السعي لاكتساب دخلاء الى دينهم (قياماً بالفرض المسيحي الواجب على كل مؤمن) لكن صبغة التقدم الاسلامي في دمشق وبغداد كانت مسيحية»

ولا يخفى ان المسيحية في ذلك العصر لم تكن حسب دين المسيح في طهارته الكاملة ونماذج محبته وتسامحه ، فقد حالت الشبهات والبغضاء المتبادلة دون تفاهم وتواد الباحثين وراء معرفة الله من الغيورين بين المسيحيين والمسلمين فكان المسلم مخوفاً مهاباً والمسيحي مرذولاً محتقراً وكان أتباع المسيح اعداء الله في اعين المسلمين الذين جعلوا الحق للقوة في تلك الايام والعياذ بالله

وشرائع ذلك العصر الدينية تفصح لنا عن معاملة المسيحيين الذين كانوا في عرف المسلمين كفرة لا تحميهم الا ضرائب الرأس (الجزية) التي كانوا يدفعونها والتي خولتهم بعض الحقوق كرعايا. وبين الشرائع التي سنها النواوي أشهر المتشرعين في مذهب الشافعي والذي علّم في دمشق سنة ١٢٦٨ ما يأتي : —

«على جباة الضرائب معاملة الكفرة الذين فرضت عليهم ضريبة الرأس بالامتهان والاحتقار فيبقى الجابي جالساً والكافر واقفاً أمامه حاسر الرأس محدودب الظهر. وعلى الكافر ان يضع بنفسه الدراهم في الميزان والجابي يمسك بلحيته ويصفعه على خديه . ولا يجوز للكفرة ان يمتلكوا دوراً أعلى من جيرانهم المسلمين ولا مساوية لها وهذا القانون لا يسري على الكفرة الذين يقطنون في حي خاص بهم . وممنوع على الكافرين من رعايا السلطان ركوب الخيل ولا يسمح لهم الا بالحمار أو البغل مهما كانت قيمته . وعليهم استعمال المهامز الخشبية . ومحظور عليهم استعمال المهامز الحديدية أو السرج ikaf (البراذع) . وعلى الكافر ايضاً ان يركن الى جانب الطريق ريثما يمر المسلم ولا يجوز معاملته (الكافر) كانسان ذي حيثية ولا يعطى له المكان الاول في المجتمعات . ويجب تمييزه برداء ملون ومنطقة فوق ثيابه واذا دخل الكافر داراً للاستحمام بها بعض المسلمين أو خلع ثيابه بحضرتهم في أي مكان آخر وجب ان يعلق في عنقه طوقاً من الحديد أو الرصاص أو أي علامة اخرى تدل على الذل والعبودية . ومحظور عليه ان يكون عثرة للمسلمين في

إسماعهم تعاليه الفاسدة أو التكلم بصوت عال عن مسيحه أو معاقرة الخمور أو اكل لحم الخنزير . ولا يسمح للكفرة بقرع أجراس كنائسهم أو مجامعهم ولا التباهي في حفلات طقوسهم الدينية» . وتفسير آية الجزية : «يجلس الآخذ ويقوم الكافر ويحني ظهره ويضع الجزية في الميزان ويقبض الآخذ لحيته ويضرب لهزمتيه» (الخطيب ج ١ وجه ٤٩٦ والكشاف ج ٢ وجه ٣٠)

ويقول الاستاذ مرجوليوث (بجامعة أكسفورد) [١] :—

«لا يمكننا التزام جادة الافصاح في تاريخ الهيئات المسيحية تحت الحكم الاسلامي لانه لم تسنح الفرصة لافراد تلك الهيئات بسرد أحوالهم على نمط يأمنون به العثار ولم يفسح المسلمون مجالاً لسردها لقلة اكتراثهم ولكننا نجرؤ على القول بوجه عام بأن المسيحيين كانوا في نظر سادتهم المسلمين معثرة ومبعثاً للحقد والغيظ كما كانت النساء في نظر حكماء اليونان والرومان قديماً . ولأنهم كانوا عزلاً من السلاح كان نجاحهم يأتي دائماً من طريق الصدف . ومع ان هذه الحالة السيئة كانت شاملة لرعايا كل حكومة مستبدة تحت حاكم غير مسئول لكن كان الاهلون الغير المسلمين تحت رحمة الزعانف والاسياد على حد سواء وكان المسيحيون في أوقات الملمات والشدائد أشبه بالتيوس التي كان ينحرها بنو اسرائيل كفارة عن خطاياهم وأزمنة الشدائد هذه كانت شائعة الحلول حتى في أحسن البلاد حكماً»

وقد سدلت على اساليب معاملة المسيحيين وحالتهم الادبية في ذلك العصر سجف كثيفة ويحسن بنا ان نرخي عليها الستار أيضاً

---

(١) في كتابه «تطور الاسلام»

ولكننا نستشف من بعض فصول الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين» احوال رائعة كما يصفها مرجوليوث في قوله :—

«كان عالقاً بالمسلمين بعض الشهوات (السدومية) الخبيثة التي يخجل القلم من ذكر اسمها وهي أشبه بتلك التي ضُرب بها اليونانيون قديماً وكانوا يحاولون نيل أغراضهم الشهوانية السيئة من الصبية المسيحيين . وقد روى لنا المؤرخ ياقوت رواية عن راهب شاب من اوسا (أي مدينة الغرفة) راق منظره في عين احدهم اسمه سعد الناسخ وقد تضايق الرهبان من زيارات ولحظات هـذا الشخص حتى اضطروا أخيراً الى قطع دابره . وأخيراً وجد قتيلاً وراء جدران الدير فقال المسلمون بأن الرهبان اغتالوا حياته واقترح الحاكم ان يعدم ويحرق ذلك الراهب الشاب الذي حلت بسببه هـذه الكارثة ويجلد الرهبان زملاؤه بالسياط ,ولكنهم نالوا عفواً من هذه العقوبة بدفع مئة الف درهم» . (أهكذا يجازون الذين يحافظون على العفة والرجولة ؟)

وكانت سوق الآداب كاسدة في القرن الحادي عشر ليس بين المسلمين فقط بل بين المسيحيين انفسهم. وقد قال احد مؤرخي الكنيسة الرومانية بان ذلك العصر كان حديدياً خلواً من كل صلاح وصلباً مملوءاً بكل شر دائم وقال

«ويظهر ان المسيح كان في سبات عميق لما غمرت الامواج السفينة والادهى انه في سبات الرب لم يكن هناك تلاميذ يوقظونه بصرخاتهم وأصوات استغاثتهم لانهم كانوا انفسهم مستغرقين في نوم عميق»

ولقد غالى منتقدو البابوية في اذاعة رذائل وسخائم البابوات في ذلك القرن والقرن السابق ولكن الكنيسة نفسها بشهادة كتابها كانت غارقة في لج عميق من النجاسة وحب الشهوات والفجور فلما جاء اوتو الاول امبراطور المانيا الى رومية ادخل فيها الاصلاحات الادبية بقوة الحسام ولكن يقول ملنر في مؤلفه تاريخ كنيسة المسيح :

«كان من نتائج الانظمة التي وضعها اوتو ان استبدل البابوات سخائم الفجور والدعارة برذائل الاطماع السياسية والرياء . وهكذا استعادوا تدريجاً الغطرسة والتجبر والانتفاخ، تلك الامور التي كانوا قد أضاعوها من افراطهم في المفاسد والشرور، ولكن لم يحدث كل هذا الا في أواخر القرن الحادي عشر»

وكانت الجهود التبشيرية في ذلك العصر قاصرة على هنغاريا وبعض اجزاء الدانمارك وبولندا وبروسيا حتى قال آدم من بريمن الذي كتب حوالي سنة ١٠٨٠ «انظر الى امة الدانيمارك المتوحشة اذ صارت منذ مدة طويلة تردد في تسبيحاتها هللويا . انظر الى ذلك الشعب الذي كان يقطع الطريق بحراً وقد اكتفوا الآن بأثمار بلادهم . انظر الى ذلك الاقليم المخيف الذي كان موصد الابواب بسبب عبادة الاوثان وأهله الآن يقبلون عن طيبة خاطر الكارزين بالكلمة»

وقد ظل البروسيون من عبدة الاوثان طول ذلك العصر ويروى ان ثمانية عشر مرسلاً أرسلوا للعمل في بلادهم فذبحوا بحد السيف وهم آخر الامم الاوربية التي احنت اعناقها لنير المسيح

غير ان امجـــد رجال ذلك العصر الذين نبغوا في الغرب هو الاسقف انسلموس وقد ولد تقريباً في عصر الغزالي وقضى نحبه سنة ١١٠٩ أما حياته فكانت من أوجه كثيرة مشابهة لمعاصره فكلاهما لاهوتي وكلاهما صوفيّ دائب لايجاد راحة لنفسه في اعتزال العالم وغروره وغواياته . وكلاهما مدافع عن الايمان ومناوئ للكفر والفلسفة وقد كان لكتاباتهما وتعاليمهما نفوذ فعال في العقول فالغزالي سعى الى احياء الحياة الدينية في الاسلام بواسطة الكتاب المشهور «احياء علوم الدين» أما انسلموس فقد سعى في احياء الحياة الدينية في الديانة المسيحية بواسطة كتابه اللاهوتي الفلسفي المشهور «لماذا تجسد الكلمة ؟» وكلاهما دحض المزاعم الفلسفية بالسعي لتأييد الايمان

ولا مندوحة لنا عن القول في هذا الصدد ان مؤلف انسلموس (لماذا تجسد الكلمة) يستعمل الآن بالترجمة العربية بين المرسلين للعالم الاسلامي وقد وضعت «اعترافات» الغزالي في كتابه المنقذ من

الضلال بين ايدي القراء من الانكليز كشهادة على اخلاصه وخشوعه الذي كاد يصل به الى المسيحية

وقد عاش انسلموس والغزالي وكتبا تحت مؤثرات عميقة عن العالم الآتي ورهبة يوم الدينونة ومصير الاشرار وقد كانت هذه كلها من مميزات ذلك العصر

ولسهولة فهم العصر الذي عاش فيه الغزالي علينا ان نذكر بانه كان من العصور الذهبية وهو الذي نشطت فيه العلوم والمعارف تحت حكم الخلفاء العباسيين في بغداد وسلاطين السلجوقيين وكان الحكام في ذلك العصر يجزلون العطاء لنوابغ الادباء والعلماء ويشيدون المدارس ويعضدون التربية والتهذيب على قواعد دينية وكانت الآداب العربية غنية بوفرة الكتّاب والادباء في النصف الاخير من القرن الحادي عشر في كل فرع من فروع العلوم الاسلامية

وبين معاصري الغزالي ممن ذاع صيتهم في عالم الآداب أبو الدرداء الشاعر (المتوفي سنة ١١١٣) وابن الخياط الذي ولد في دمشق سنة ١٠٥٨ وتوفي في بلاد فارس سنة ١١٢٥ والغازي (ولد سنة ١٠٤٩) وهو الذي ألف المراثي والمدائح في الكلية النظامية وكان زميل الغزالي وتوفي في خراسان . والطرابلسي (ولد سنة ١٠٨٠) وهو شاب معاصر

ولكن اشهر شعراء ذلك العصر هو الحريري المعروف بمقاماته التي سطعت بنورها على أخلاق وآداب ذلك العهد (وما هو نورها ؟)

وبين رجال الجامعة النظامية الخطيب اللغوي الشهير الذي (ولد سنة ١٠٣٠) وابن العربي الذي ولد في اشبيل (بالاندلس) سنة ١٠٧٦ وجاء بغداد للارتشاف من تعاليم الغزالي . وأشهر علماء الشافعية ممن عاصروا الغزالي هو الرياني وكان استاذاً في نيسابور وكتب مجلده الشهير عن الفقه المسمى «بحر العلوم» وقد اغتيل هذا العالم سنة ١١٠٨ عقب القاء احدى محاضراته بيد اثيم متعصب من شيعة الفدائيين السفاحين (الحشاشين) الذين كانوا وقتئذ معتصمين بقلعة الأَمُوت في الجبال السورية الشمالية

ونذكر بين رفقة الغزالي في الدراسة الحراسي (١٠٥٨—١١١٠) وقد تلقى علومه في نيسابور على يد امام الحرمين ثم انتقل الى بغداد حيث قضى بقية حياته في تعليم علم الكلام في الجامعة النظامية .

ولا ننسى أيضاً البغَوي الذي كتب تفسيره عن القرآن وبعض المؤلفات الفقهية الاخرى (سنة ١١٢٢) والراغب الاصفهاني الذي توفي سنة ١١٠٨ وكتب قاموس القرآن مرتباً حسب الحروف لهجائية ويُعرف بمفردات ألفاظ القرآن وفيه اقتباسات من الاحاديث

والشعراء . وقد كتب ايضاً رسائل عن الآداب التي كان الغزالي دائماً يحملها معه وتفسير القرآن

ولا يفوتنا ان نذكر بين معاصري الغزالي الاولين علي بن عثمان الجلابي الهجويري مؤلف أقدم الرسائل الفارسية عن التصوف وقد ولد في غازني من اعمال أفغانستان وتوفي سنة ١٠٦٢ لما كان الغزالي في الرابعة عشرة من عمره . وقد جاب الهجويري كل بقاع الدولة الاسلامية وسبق له ان كتب في مؤلفه الشهير «كشف المحجوب» الشيء الكثير من تعاليم الغزالي مما يدل على ان هذا الاخير كان في تعارف مع المؤلف

ونذكر أيضاً بين مشاهير هذا العصر الميداني من نيسابور المتوفي سنة ١١٢٤ وقد كتب مؤلفاً ضخماً عن الامثال العربية . والزمخشري الذي ولد سنة ١٠٧٤ وكتب تفسيره الشهير عن القرآن وابن طومارت الفيلسوف المغربي الطائر الصيت الذي حضر محاضرات الغزالي في النظامية . والشهرستاني الذي كتب مؤلفه المشهور (واسمه «الملل والنحل») عن الاديان والطوائف المختلفة — ولا يزال كتابه هذا حجة لليوم بين جميع المسلمين

وقصارى الكلام ان ذلك العصر كان من الاعصر الذهبية

للعلوم والآداب الاسلامية ومن دواعي الفخر ان الغزالي — بحكم المسيحيين والمسلمين على السواء — تفوق على كل معاصريه وبرز عليهم في العلوم والآداب ان لم يكن في الاسلوب والفصاحة ففي مرمى مؤلفاته وصفتها وفي نفوذ حياته التي لم يدانه فيها أحد لانه كان أكثر مؤلفي عصره اهتماماً بالكتب المسيحية وما فيها من العلوم والآداب والروحيات التي ظهرت تأثيراتها في أقواله وأفعاله وكتاباته

وها نحن الآن نسطر للقارئ الكريم ترجمة حياته وماهية غايته والله ملجأنا وبه نستعين

الفصل الثاني

ولادته وتربيته

ولد الغزالي وتربى في خراسان من أعمال بلاد فارس وهناك أيضاً كانت أخريات أيامه وكانت بلاد فارس كما يقول هيوارت مهبط القوة العلمية وذكاء الآريين [١] ومستودع العقول المتفننة المبتكرة من هنود وأوربيين وفيها أينعت قرائح أرباب الفنون والفلاسفة والعلماء من عصر الدولة العباسية فصاعداً مما كان كبير الاثر في العلوم والمعارف العربية في كل رقاع الخلافة الاسلامية ومنبعاً لاكثر المؤلفات الهامة

وهذا الذكاء الآري هو الذي يعلل نفوذ الغزالي وطول باعه في الآراء الاسلامية وانتصاب هذا النفوذ في عصرنا الذي يواجه فيه الاسلام عوامل تمزق من شمله وتفت في عضده . وفي عصر الغزالي كان النفوذ الفارسي في أشده سائداً في كل شيء وكان صرير الاقلام العربية قد صمت وانقطع وسادت الصبغة الفارسية في عوالم الشعر والفقه والعلوم . واعتلى المناصب الادارية والقانونية اناس من غير

(١) كان الآريون سكان بلاد فارس الشرقية وكانت لغتهم السنسكريتية ٠

العرب غير ان اللغة الرسمية كانت لغة القرآن وظلت اللغة العامية الوحيدة في كل ولايات الخلافة الاسلامية وكأن كل الاجناس من فرس وسوريين ومغاربة قد أذيبت وامتزجت في هذه البوتقة العظيمة (في لغة القرآن)

كان الغزالي فارسي المولد آري الافكار والآراء سامي الدين (أي من ذرية سام ابن نوح) [١] ولم يلبث ان صار شائعاً في الوطنية بفضل جولاته وتربيته فان اقامته في كل مراكز الاسلام العظمي قد مهدت له سبيل الاحتكاك برجال كل مدرسة وأرباب كل فكر وأتباع كل دين ونظرية فلسفية وهذا يفصح لنا عن مقدرته العامية وسعة اطلاعه وغزارة مباحثه لان افقه (دائرة نظره) امتد من بلاد افغانستان الى الاندلس ومن كردستان الى جنوب البادية العربية. أما ما حدث في أوربا (أي خارج «دار السلام») فبسطته الحملات الصليبية أمام الاعين

وكان علماء العالم الاسلامي على صلة مع بعضهم بواسطة المكاتبات فلدينا ما يثبت ان الغزالي وصلته مكاتيب من الاندلس ومراكش ومصر وسوريا وفلسطين. وكان السلاطين يستفتونه في

(١) سميت اللغات العربية والعبرية الخ لغات سامية نسبة الى سام

مسائل الفقه والفلسفة علم الـكلام لاصدار فتواه في الاجابة عليها .
وكل هذا أدى الى معرفة الاوطان الاخرى كما ظهر في مؤلفاته

وقد كانت خراسان موطن الغزالي اقليماً بهيج الرواء تخترقه الينا بيع العذبة والمروج الخضراء النضرة شمسه لامعة بهية حتى سمي «أرض الشمس» وهو أحد الاقسام الاربعة لمملـكة الساسانيين القديمة وكانت قد سميت طبقاً لنقط البوصلة الاصلية وقد أطلق هذا الاسم بعد الفتح العربي على أقليم معين وكذا شمل كل القسم الشرقي من بلاد فارس وحتى اليوم قلما يمكن تعيين تخوم هذا الاقليم وتبلغ مساحته نحو ١٥٠٫٠٠٠ ميلاً مربعاً وعدد سكانه في الوقت الحاضر لا يربو على ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ولـكنه كان بلا شك اكثر من ذلك كثيراً في عصر الغزالي .

وأرض خراسان جبلية في الجهة الشمالية والجنوبية الغربية وكثيرة التلال في الجهة الشرقية ولكن بين سلسلة الجبال تمتد بقاع شاسعة من الاراضي البور القفراء واكبر هـذه القفار الملحية هي «الدشت الكبير» وهي صحراء خراسان الملحية الكبرى . وفي كل الاقليم لا سيما قرب طوس قامت منازعات مستمرة بين السهول الجافة والاودية الخضراء وحاولت كل منها التغلب على الاخرى

ولكن الرمال كانت قد تشربت بتربة بعض المدن والقرى وقلما تجد هناك أنهراً اللهم الا مجاري صغيرة منقطعة تتيه في الصحراء الملحية الكبرى ثم ترسب الاملاح التي تحتها هذه النهيرات في المستنقعات وتأتي عليها حرارة الشمس المحرقة فتجففها حتى يحين ثانية موسم الفيضان في الشتاء . وبتكرار هذه العملية أجيالاً متوالية تشربت البقاع التي امتدت عليها المستنقعات بالاملاح

وقد أجمع السياح وعلماء المناخ على وجود دلائل اليبوسة والجفاف بتلك البلاد وفيها كثير من خرائب المدن والقرى وكلها تشهد على كثرة سكانها واعتدال مناخها وتوفر اروائها في الاعصر الخالية وليس من العدل ان ننسب انحطاط بلاد فارس الى جوائح الحروب وسوء ادارة العهد الاسلامي فقط.

وقد قال الاستاذ الزورث هننجتون في مؤلفه « بعمل مقارنة بين الاقاليم الاربعة خراسان واذربيجان وكرمان وسجستان نصل الى شيء من المعرفة فخراسان قد عانت من ويلات الحروب اكثر من اي اقليم آخر في بلاد فارس ولكن قسمها الشمالي حيث تتساقط الامطار بغزارة وحيث وقعت اكثر المعارك والوقائع الحربية لايزال الى اليوم اخصب البقاع واغناها في بلاد فارس . نعم به كثير من

الخرائب والبقايا ولكنها خلو من المعالم المؤثرة البارزة في البقاع الجنوبية . واما القسم الشمالي من هذا الاقليم وهو اكثر جفافاً من غيره فمملوء بالخرائب القديمة وقد عانى الأَمَرَّين من ضروب اقفاره من سكانه . واذربيجان الذي عانى كثيراً من الحروب اكثر الاقاليم بعد خراسان ولكنه اليوم اكثر البقاع الفارسية سكاناً وخصوبة ورفاهية ووفرة المياه النسبية في ربوعه تبعث الامل في حسن مصيره. وكذا اقليم سجستان قد عانى كثيراً من الحروب ولكنه أقل من الاقليمين السابقين غير انه قد احاقت به نوب اقفرت من اراضيه وقللت من عدد سكانه الى نسبة كبرى وجفاف تربته يجعل استفاقته من هذا الانحطاط في حكم المستحيل تقريباً . واما كرمان فلكونه واقعاً وراء صحاريه وجباله فلم يعان من الحروب الا النذر اليسير بالنسبة للاقاليم الثلاثة الاخرى ولكن مدنه المخربة ومعالم فقره في عدد سكانه تحمل على اليأس في مصيره مثل اقليم سجستان . واذا كانت الحروب وسوء الادارة هما علة انحطاط بلاد فارس أفليس عجيباً ان يكون الاقليمان اللذان عانيا الحروب وقاسيا سوء الادارة اكثر رفاهية واوفر سكاناً الآن واللذان عانيا أقل منهما في الحروب

ولم يصابا بسوء الادارة يقفران في عـدد السكان بدرجة مخيفة وقد لا يرجى أصلاح لهما» ؟

وسطح اقليم خراسان اليوم مركب من هضاب مرتفعة وصحاري ملحية واودية مثمرة وفيرة الارواء تنبت الارز والقطن والزعفران وخصوصاً البطيخ والفواكه الاخرى بكثرة ومن حاصلاتها ايضاً المن والصمغ والحلتيت التي تصدرها لبلاد الهند وكذا الفيروز ايضاً . واهم مصنوعاتها السيوف والفخار والسجاجيد والبضائع الصوفية والقطنية

وقد حلت مدينة «مشهد» العاصمة الحالية لولاية خراسان محل المدينة القديمة «طوس» التي لا تزال خرائبها باقية الى اليوم على مسافة خمسة عشر ميلاً في الجهة الشمالية الغربية ولدينا اشارات عن مسقط رأس الغزالي يرجع تاريخها الى القرن العاشر فقد قال مسعر مهلهل (حوالي سنة ٩٤١ ب.م) «طوس عبارة عن اتحاد مكون من أربع اثنتان منها كبيرة واما الآخريان فدونهما أهمية ومساحتها تبلغ نحو ميل مربع وفيها آثار جميلة يرجع تاريخها الى العهد الاسلامي كدار حامد بن قحطبا وقبر علي بن موسى وقبر الرشيد [١] في ضواحي

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه مجلد ٣ وجه ٤٤ سطر ٣٤ طبع المطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٢١ هجرية

المدينة» وقال الأُصْطَخْرِيُّ (حوالي سنة ٩٥١ ب. م) عن طوس انها ولاية (متصرفية) ملحقة بولاية نيسابور مكونة من أربع مدن كبرى غير ان اوفى تاريخ ووصف لحالة مدينة طوس الحالية هو ما كتبه الاستاذ وليم جاكسون في مؤلفه «من الاستانة الى موطن عمر الخيام» إذ قال بأن اسم هذه المدينة قديم العهد جداً ومعاصر لاسطورة المحارب «طوسا» الذي حارب طوران وان اسكندر الاكبر قد مر بها في مطاردته لبسوس قاتل داريوس وكذا امتازت مدينة طوس مع نيسابور بوجود كرسي الاسقف النسطوري المسيحي فيها ولما افتتح العرب بلاد فارس سقطت طوس في ايدي الغزاة وصارت مركزاً اسلامياً هاماً لا سيما وقد كانت موطن الشاعر الشهير الفردوسي الذي ولد حوالي سنة٩٣٥ ب.م وتوفي سنة ١٠٢٥ ب.م

وهاك ما قاله الاستاذ جاكسون في وصف خرائب المدينة الحالية :—

«كانت الاسوار المتهدمة يوماً ما عريضة البناء عبارة عن استحكامات عالية ولكنها قد انبسطت بمرور الاجيال عليها مع ان آثار أبراجها لا تزال مرئيه حتى اليوم وشكلها الحالي يبين محيط المدينة ولا بد أنها كانت مربعة الاضلاع تبعاً لنقط البوصلة ...... وقد مثل لنا المنظر (كما شهدناه) آثار

الخراب التي تسببها يد الانسان وقوة الطبيعة الابدية التي تقوم من كبوتها وتتفتح أكمامها كالزهر نعم ان غارات جيوش المغول والزلازل قد اجتاحت هذه المدينة العامرة وجعلت عامرها خراباً يباباً ولكن ترابها لا يزال حاوياً لحبات الازهار والحبوب تجدد فيها الحياة وسط الموات وبقاع واسعة من حقول الشعير والبرسيم تنثر خضرتها ممتدة على كل جوانب المدينة وبجانبها قفار جرداء وأراض خلاء تنبىء بتاريخ الخراب الذي إنتابها في الأعصر الخالية » ثم يقول الاستاذ جاكسون « ويتضح لنا ايضاً ان خرائب مدينة طوس الحالية وبابي رودبار وريضان كانت جزءاً من حي طبران وهو القسم الهام من المدينة في عصر الفردوسي أيام كانت المدينة تشغل مساحة واسعة ذات مراكز عديدة آهلة بالسكان كما يؤخذ من أقوال الشرقيين من علماء تقويم البلدان في القرن العاشر أو أبان الفترة التي عاش فيها ذلك الشاعر الطائر الصيت . وفي حي طبران هذا دفن الغزالي ولا بد ان يكون قد اتخذه موطناً في اواخر حياته »

وقد كانت المنازعات الدينية مالئة لفضاء طوس لكثرة عدد المسيحيين فيها وكذا الشيعيين من المسلمين فان بعضاً من كتابهم وعلمائهم المشهورين مثل ابو جعفر محمد ولد في مدينة طوس هذه وابن أبي حاتم وهو اشهر وأول نقادة عندهم في علم الحديث توفي في طوس سنة ٩٣٩ . غير ان هذه المدينة لم تحظ بعلو الصيت وعظيم الشهرة رغماً عن كثرة علمائها وعلو كعبهم كما يؤخذ من هذه الرواية المأخوذة

عن أبن هبارية فقد طلب اليه أحد اعداء نظام الملك أن ينظم هجاء في حق هذا المليك فقال «كيف اتهكم على انسان انا مدين له بكل ما في داري ؟» ولكن اذ ضغط عليه نمق في هذه السطور ما معناه :—

«لا غرابة ان يسود نظام الملك وان يحالفه الحظ فان الحظ كاولب يرفع المياه من البئر ولا تديره الا الثيران»

ولما علم الوزير بهذا الهجاء لحظ أنّ الشاعر انما اراد التلميح الى اصله فقط وكان قد جاء من طوس خراسان ويقول المثل السائر عندهم «كل رجال طوس ثيران» (وربما يقال الآن انهم حمير)

وقال ايضاً شينري : «اشتهر اهل خراسان بالبخل والتقتير ولا عجب ان فاق سكان امهات مدنهم في بخلهم كل شعوب المعمور» وقد روى السعدي في كتابه «جولستان—الراز» ان تاجراً من كبار تجارهم في مرو لم يكن ليسمح لابنه بأكل الجبن بل كان يأمره ان يحك رغيفه في غطاء الزجاج الموضوع عليها

واثباتاً لبلادة الخراسانيين في الوقت الحاضر روى الماجور سكس رواية عن ثلاثة من الفارسيين التقوا ببعضهم وأخذ كل منهم يطنب في أقليمه فقال الكرماني «من اثمار كرمان نوع من الفاكهة ذو سبعة الوان» وقال الشيرازي «تنبع مياه روكناباد من الصخور»

وأما الخراساني المسكين فقال «من خراسان نبت كل الحمق الذين هم على شاكلتي»

ومن هذه الاسباب يتضح لنا جلياً ان الغزالي مدين لعوامل الوسط الذي نبت فيه وكذا لتوقد قريحته وفرط ذكائه وهو نفسه لم يبتدع مذهب الصوفية بل نسج على المنوال الذي خلفه اسلافه في هذا الموضوع . ورؤوس الموضوعات في «كشف المحجوب» هي بعينها الموجودة في كتب الغزالي عن التصوف

ويؤخذ من أقوال مرتضى أن اسم الغزالي الكامل كان «أبا حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي» وولد في طوس سنة ٤٥٠ للهجرة (سنة ١٠٥٧ ب . م) ويروى أن آخرين قبله امتازوا بلقب الأسرة ثلاث مرات متكررة

وقد اختلف الكتاب في اسمه فقال بعضهم بتشديد الزاي (الغزّالي) وقال آخرون بتخفيفها (الغزَالي) ويظن الاستاذ مكدونالد ان اسمه «الغزّالي» (بتشديد الزاي) وأدلى بأدلته في مقال خاص . وهذه التهجئة تتفق مع ما جاء في قاموس ابن خلكان (سنة ١٢٨٢ ب.م) ولكن يلوح لنا طبقاً لاقوال السمعاني وهو أشهر الثقات — ان هذا الاسم مشتق من «غزالة» وهي قرية قريبة من طوس وليس مصطلحاً

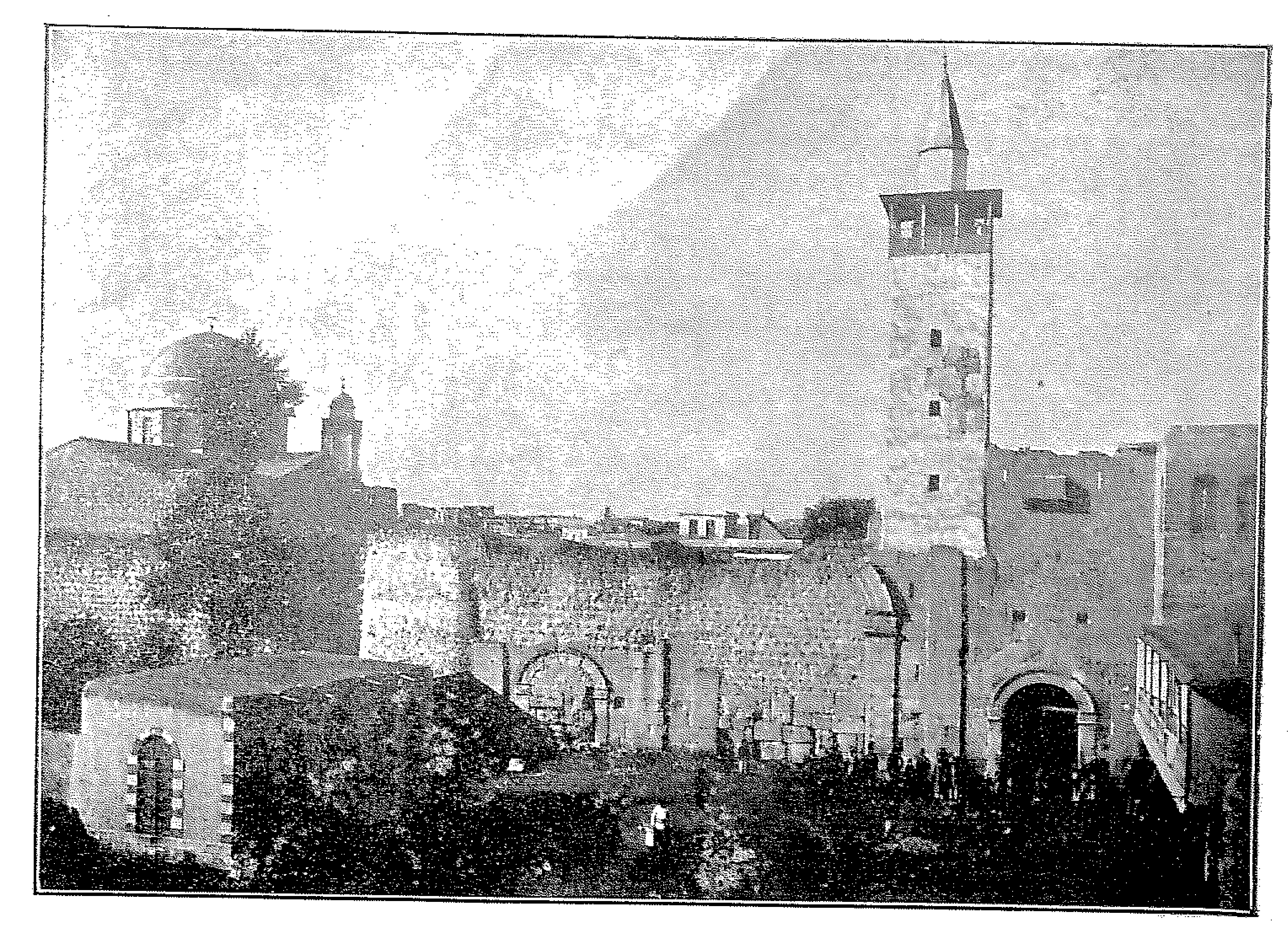
عليه بين علماء الالقاب . وأبو سعد عبد الكريم السمعاني هذا ولد بعد وفاة الغزالي بسنتين وكتب كتاباً شهيراً عن الألقاب يقع في ثمانية مجلدات وقد كان بارعاً في الاسماء والالقاب ويمكننا الاخذ برأيه في تسمية هذا الامام الشهير الذي كان من أبناء وطنه. وعلماء الازهر في مدينة القاهرة يأخذون بهذا الرأي ويكتبونه (الغزالي)

ويقول بعضهم إنه كان اثنان من العلماء في هذه الاسرة الواحدة أحدهما الغزالي الاكبر الذي أقيمت الأذكار عند قبره قبلاً في مدافن طوس وهو عم والد الغزالي والآخر كان ابناً لهذا ويلوح لنا أن هذه الرواية مأخوذة عن الغزالي نفسه فانه عند موت أبيه أودع ولديه محمد واحمد الى عهدة صديق صوفي يركن اليه ليتولى تربيتهما وتثقيفهما ويخال لنا انه نفسه لم يكن متشبعاً برغبات صادقة في التعليم واعتزم أن يكون لولديه قسط أوفر منه ولذلك نقد صديقه هذا القدر اللازم من المال وبرهن بعدئذ على أمانته وشدة حرصه في تعليمهما وتربيتهما حتى فقد ما لديه من المال وبعد ذلك أوعز اليهما ان يلتحقا بمدرسة — حسب العادة الاسلامية — حيث يهيأ لهما الطعام والايواء اللازمين . وقد روى الغزالي هذه الرواية في أواخر حياته ثم أردف

فقال «كنا طلبة لغير الله وأما الله سبحانه فلم يرض أن نطلب الا اياه» (انظر ص ٩ من سفر أعمال الرسل)

وهذا الشاهد يلقي نوراً ساطعاً على العوامل التي دفعته للتبحر في الدرس والبحث وعلى مقدار ذكائه واجتهاده ففي بادئ الامر كان جاداً وراء الصيت والثروة بواسطة تغوُّره في العلوم أكثر من التقوى والصلاح

أما عن بيت الغزالي في طوس وحياة أسرته فلم نعلم شيئاً ومما لا شك فيه ان اللقب «أبو حامد» قد أعطي له مؤخراً وربما كان له ولد بهذا الاسم مات في طفولته . والذي نعلمه انه تزوج قبل بلوغه سن العشرين وعاش له ثلاث بنات وقيل عن أخيه الاصغر الذي توفي بعد موته بخمس عشرة سنة (١١٢٦) ودفن في قزوين هذه الكلمات : خلف الغزالي كاستاذ في المدرسة النظامية وكان صوفياً مثل أخيه ونشر مذهبه وآراءه بفصاحة كبرى وقلم سيال . وقيل عنه انه كان جميل الطلعة وقد كان ذا ولع بالمناداة العلنية والتبشير الجهري بما يراه حتى أهمل دروسه القضائية وقد كتب خلاصة لمؤلفات أخيه الشهيرة ومقالاً مشهوراً عن التصوف سماه «منهاج الالباب» أعلن فيه مزايا الفقر ودافع فيه عن ارتداء الدراويش لنوع معين من الثياب



باب توما بدمشق الشام

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب دافع فيه عن الموسيقى سماه «بوارق الالماع» وهذا حسبه المسلمون المستحفظون سخيفاً مع ان الصوفيين كانوا يستعملون الموسيقى كباعث من بواعث حالة الهيام الشديد [١]

وأما عن أم الغزالي فلم نعلم عنها شيئاً سوى انها عاشت بعد زوجها ورأت عيناها شهرة ولديها في بغداد وقد صحبتهما الى هناك على ما يظهر . ومن الاقاويل المأثورة رواية يؤخذ منها ان أبا حامد وهو في ذروة مجده وعظيم شهرته في بغداد لم يكن أخوه احمد ليؤدي له الاحترام اللائق بل كان يأتي أعمالاً يحقر بها أخاه في أعين الشعب (راجع ترجمة الغزالي في آخر كتاب مشكاة الانوار المطبوع في مصر سنة ١٣٢٢هـ)

ولا بد ان يكون الغزالي قد بدأ في تلقي علومه وهو صغير في السن وصادف نجاحاً عظيماً في طوس حتى انتقل الى مركز علمي أكبر (جورجان) قبل بلوغه العشرين من العمر على مسافة مئة ميل وهي رحلة شاقة في ذاك الوقت

(١) ما زال أكثر الصوفيين يستعملون الآلات الموسيقية في اذكارهم كالدفوف (البنادير) والباز والكاسات النحاسية وبعض القطع الحديدية ذات الصوت الرنان كالصنج والقصاب (الناي) وذلك بين القادريين والبرهاميين والسعديين والعروسيين والحبيبيين والسلميين وغيرهم «المصحح»

وفي ترجمة الغزالي التي كتبها هو عن نفسه نرى فكرته الانجيلية عن نموّ الطفل في الحكمة والقامة (راجع آخر مشكاة الانوار المتقدم ذكره)

ولا بد ان يكون الغزالي ممن تعودوا الصحو باكراً منذ حداثته فقد كتب في مؤلفه «البداية» وجه ٥ فقال :—

«فاذا استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا ابرهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين اللهم انا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير وأعوذ بك أن اجترح فيه سوءاً او أجره الى مسلم (؟) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هـذا اليوم وشر ما فيه فاذا لبست ثيابك فانو به امتثال اوامر الله تعالى في ستر عورتك واحذر ان يكون قصدك من لباسك مراآة الخلق فتخسر»

وفي المؤلف نفسه وجه ١٩ و٢٠ قد شدد على الصحو باكراً بقوله :—

«و اعلم ان الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل

والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك ان عشت مثلاً ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواكك وطهورك واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح وركعتان في جوف الليل كنز من كنوز البر فأكثر من كنوزك ليوم فقرك فلن تغني عنك كنوز الدنيا إذا مت » (وهذه النصيحة خلاصة من بشارة متى ص ٦)

ومن المحتمل جداً ان يكون الغزالي قد بدأ في تعلم القراءة قبل بلوغه الحول السابع من العمر لاننا نرى ان دروسه في طوس وبعدئذ في جورجان لم تتضمن التعليم الديني فقط بل حوت معرفة كاملة باللغتين الفارسية والعربية — وسنتكلم في ما بعد عن علومه الدينية وهو نفسه قال : ان العلوم الفلسفية التي تلقنها تحوي «الرياضيات والمنطق والطبيعة والعقليات والسياسة والفلسفة الادبية» ومع انه لم يذكر في كتابه المنقذ من الضلال شيئاً عن دروسه الاولى لكن ما يقوله عن الرياضيات يلقي نوراً فياضاً على مقدار شكوكه إبان حداثته . فقد قال :—

«ثم اني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة فإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من

فساده حقاً ولم أر أحداً من علماء الاسـلام صرف همته وعنايته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهـم إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلاً عمن يدعي حقائق العلوم . فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية فشمرت عن سـاعد الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باسـتاذ ومعلم وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التدريس والتصنيف في العلوم الشرعية وانا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد فأطلعني الله سبحانه بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختلسـة على منتهى علومهم في أقل من سنتين ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة اعاوده وأتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعاً لم أشـك فيه » (المنقذ من الضلال وجه ٩و١٠)

ولم يتقعر في الرياضيات فقط بل في الفلك أيضاً والعـلوم الاخرى وكلها مناقضة لحقائق الشرع ولا بد أن يكون الغزالي قد استشعر هذا كله بدليل قوله :

«الآفة الثانية نشأت من صديق للاسلام جاهل ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم — أي الى الرياضيين — فانكر جميع علومهم وأدعى جهلهم فيها حتى انكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم ان ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان

القاطع لم يشك في برهانه لكن اعتقد ان البرهان مبني على الجهل وانكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم فليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية . وقوله صلى الله عليه وسلم : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله والى الصلاة . ليس في هذا ما يوجب انكار علم الحساب المعروف لمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص » (المنقذ من الضلال وجه ١٣و١٤)

ولا يغرب عن بالنا بهذه المناسبة أن عمر الخيام الشاعر الفلكي هو الذي كان يقود الكثيرين الى الحاده ومروقه في ذلك العصر كما سترون

وكان على الطالب المجتهد بعد معرفته بقواعد اللغة العربية واستظهار القرآن أن يبدأ بدراسته للقرآن على أسلوب واف ولا بد أن مدرسي كتب الغزالي قد دققوا وشددوا كما شدد هو على أهمية تلاوة الكتاب المبين تلاوة صحيحة خالية من كل لحن . وقد جاء الغزالي في احدى نفثاته في «الاحياء» بهذه الملاحظات :—

« أما من ختم في الاسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة احزاب فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً فروي ان عثمان كان يفتتح ليلة الجمعة

بالبقرة الى المائدة وليلة السبت بالانعام الى هود وليلة الاحد بيوسف الى مريم وليلة الاثنين بطه الى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت الى ص وليلة الاربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه اقساماً لا على هذا الترتيب وقيل احزاب القرآن سبعة فالحزب الاول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والحزب الرابع تسع سور والحزب الخامس احدى عشر سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق الى آخره فهكذا حزبه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرأونه كذلك وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل ان تعمل الاخماس والاعشار والاجزاء فما سوى هذا محدث (وبعد ملاحظات على الكتابة والترتيل واستحباب البكاء في القراءة ومراعاة حق الآيات وطريقة الابتداء والجهر بالقراءة قال من بعد البند العاشر) : تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة . قال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن باصواتكم وقال عليه السلام ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن وقال صلى الله عليه وسلم من منا لم يتغن بالقرآن فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الالحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروي أنه (ص) كان ليلة ينتظر عائشة (رضه) فأبطأت عليه فقال (ص) ما حبسك ؟ قالت يارسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام (ص) حتى استمع اليه طويلا ثم رجع فقال (ص) هذا سالم مولى ابي حذيفة . الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله . واستمع (ص) ايضاً ذات ليلة الى عبد الله ابن مسعود ومعه ابو بكر وعمر رضي الله عنهما

فوقهوا طويلاً ثم قال (ص) من اراد ان يقرأ القرآن غضاً طرياً كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد . وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ عليّ فقال يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم اني أحب أن أسمعه من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان . واستمع صلى الله عليه وسلم الى قراءة أبي موسى فقال لقد اوتي هذا مزامير آل داود فبلغ ذلك ابا موسى فقال يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً» (الاحياء ج١ وجه ١٩٦ — وجه ١٩٩)

وانا نعتقد بان يوسف النساج استاذه الاول وكان صوفياً وصار امام الحرمين شدد على هذه الملاحظات عينها ولا ننسى بأن الغزالي تربى في وسط تشبع بروح التصوف .

وبعد درس القرآن كان يعكف الطالب على درس الحديث ثم الفقه وأمامنا من محتويات المؤلفات الشرعية في هذا الباب التي كتبت قبل عصر الغزالي والتي كتبها هو بنفسه ما يلفت انظارنا الى المواد الهامة التي كانت غاية القوم في مدارس طوس وجورجان فكان الدرس الاول عن الطهارة باستعمال الوضوء والغسل والمسواك وأحوال الجنابة التي كانت تقتضي الغسل مع الوضوء الكامل ثم أمراض النساء ومدة الحمل . ويلي هذا الجزء الثاني من الكتاب عن الصلاة ومواقيتها وأحوالها ومقتضياتها ومن ضمنها الاشياء الاربعة التي

تختلف فيها صلاة المرأة عن صلاة الرجل . ثم الزكاة والصوم والحج وأحكام الشراء والبيع والدين والوراثة والوصاية . ثم الطلاق والزواج وهو موضوع واسع النطاق وقد استوعبته كتب الفقه (الشريعة) الاسلامية ولم تترك فيه شاردة ولا واردة الاّ وأحصتها . ويلي هذا كله أحكام الجرائم واستعمال الشدة والجهاد الديني ونحر الكفارة يوم العيد الكبير . والفصول الثلاثة الاخيرة في كتب الفقه تعالج عادة الاقسام والشهادة وتحرير العبيد (انظر محتويات كتاب الغزالي المعروف «بالوجيز»)

وكان الغزالي منذ أيام شبابه من أتباع المذهب الشافعي وهو أحد المذاهب الاربعة الرئيسية في الاسلام وقد مات هذا الامام الشافعي سنة ٢٠٤ للهجرة ودفن في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة في الصحراء تحت سفح الجبل المقطم وانتشرت حول ضريحه المساكن والمقابر حتى صار الحيّ المحيط به يعرف باسمه الى اليوم وكان الغزالي قد زار قبره الذي لا يزال مزاراً حتى اليوم . وقد اختار هذا الامام التوسط بين نصوص الاحاديث الشديدة التحفظ وبين حرية المنطق في الشريعة الاسلامية وقال عنه مكدونالد «لا شك بأن الشافعي كان من اكبر الشخصيات في تاريخ الفقه الاسلامي وربما لم

يكن لديه تأصل وفطنة الامام أبي حنيفة ولكن كان له عقل راجح وطبع هادئ وبصيرة ثاقبة تدرك المقدمات والنتائج مما أيده اثبات النحو الذي نحاه ولقد جاء بعده من حاولوا هدم بنيانه فلم ينالوه بشيء وثبتت الاحكام الفقهية والانظمة الشرعية التي وضعها» . ويبلغ الآن أتباع المذهب الشافعي نحو ٦٠ مليونا نصفهم تقريباً في جزائر الهند والبقية في مصر وسوريا وحضرموت والهند الجنوبية وملاشيا (أي قرب سنغافورة) . والغزالي الشافعي المذهب هو بالطبع صاحب المقام الرفيع بين أتباع هذا المذهب

ويروى عن الغزالي واقعة هامة لها علاقة بدروسه التي كان يتلقاها عن استاذه الامام أبي النصر الاسماعيلي فكان قد أخذ عن هذا الاستاذ بعض المذكرات ولكنه أهمل استظهار ما كتبه . ويظهر أن هذا كان من صفاته حسب قول مكدونالد لأن اقتباساته مهملة في أغلب الاحايين . ومن التهم التي أقامها ضده مناوئوه بعدئذ اتهامه بافساد الحديث والتحوير فيه — وهذه هي الواقعة :» أثناء رجوعه من جورجان الى طوس سطا عليه اللصوص في الطريق وعروه من ثيابه وأخذوا منه الجراب الحاوي لمذكراته فلم يطق صبراً على ذلك وركض وراءهم وأمسك بهم غير آبه بتهديدهم اياه بالموت

وطلب اليهم أن يردوا له المذكرات لأن لا فائدة لهم منها — وكان عند الغزالي شيءٌ من حب المزاح أثار فيه الآن مجرد الفكر بأن هؤلاء اللصوص سيدرسون الفقه — فسأله زعيم عصابة اللصوص عن ماهية هذه المذكرات فأجابه الغزالي بمنتهى البساطة قائلاً «هي أوراق مكتوبة في هذا الجراب سافرت لكي اسمعها واكتبها فأُحصّل منها العلوم» فضحك الزعيم وقال «كيف تقول أنك تحصل العلوم وها نحن قد سلبناك اياها فجردناك من العلوم وأصبحت بلا معرفة ؟ وأخيراً أعطاها له . ويقول الغزالي بأن هذا الانسان أرسله الله اليه ليعلمه وجوب استظهار مذكراته وكان من جراء هذه الحادثة أن رجع الغزالي الى طوس وقضى ثلاث سنوات في استظهار مذكراته لكي يقي نفسه من سطوات اللصوص في المستقبل» (ترجمة الغزالي في أول كتابه إحياء علوم الدين وجه ٢)

وبعد قليل ترك الغزالي طوس لمتابعة دروسه في نيسابور تحت أشهر اساتذة ذلك العصر في ذاك المركز العلمي الهام . (وقد كانت نيسابور على مسافة تسعة واربعين ميلاً غربي طوس واستولى عليها العرب سنة ٣١ للهجرة) . ويقول عنها ياقوت في قاموسه الجغرافي

انها اجمل المدائن التي زارها وفيها كتب الهمذاني مقاماته الاربع مئة وانتصر على منافسه العلمي

وبين مشاهير الرجال الذين لهم علاقة بهذه المدينة عمر الخيام الشاعر الفارسي واحمد الثعالبي شارح القرآن والميداني مؤلف مجموعة الامثال العربية المشهورة

وكان اسم المدينة قديماً (او الاقليم) ابراشهر ولها بعض الاهمية الدينية في عصر الساسانيين وقد كان بجوارها احد هياكل النار الثلاثة (المقدسة عندهم) وكان في نيسابور في عهد الاسلام عنصر عربي كبير وصارت بعدئذ عاصمة خراسان ونالت قسطاً وافراً من الرفاهية والتقدم تحت حكم امراء بيت طاهر المستقلين (٨٢٠–٨٧٣ ب . م) . ويقول عنها الاصطخري انها مدينة حصينة مربعة واهم صادراتها البضائع القطنية والحرير الخام . ولما بدأ نجم الدولة العباسية بالافول عانت هذه المدينة الامرين من غزوات التركمان الذين اجتاحوا الاقليم كله بغزواتهم وفي سنة ١١٥٣ دمرها الغزاة على بكرة ابيها ولكنها استعادت قوتها لان موقعها — كما يقول ياقوت — سلطها على كل متاجر القوافل مع الشرق . ثم استولى عليها المغول بعد ذلك سنة ١٢٢١ ودمروها وبعد قرن كامل من هذا التاريخ زارها

ابن بطوطة فوجدها عامرة زاهرة بها اربع كليات وعدد عديد من طلبة العلم وكانت تصدر لبلاد الهند البضائع الحريرية . وقد اشتهرت هذه المدينة ايضاً بفواكهها وكرومها وبساتينها حتى اطلق عليها اسم «دمشق الصغرى» (رحلة ابن بطوطة مجلد اول وجه ٢٩٨ سطر ١٤)

ولدينا وصف لذيذ لاكبر اساتذة الغزالي مذ كان في نيسابور — وهو ابو المعالي عبد الملك الجويني امام الحرمين . وقد ولد هذا في بلدة بشتانيكان القريبة من نيسابور في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٠٢٧ وكان من اشهر واكبر علماء الشريعة الاسلامية في عصره . وعند موت أبيه ابي محمد عبد الله بن يوسف الذي كان استاذاً في المدينة الاخيرة خلفه وهو في العشرين من عمره فقط . ولكي يتم دروسه ويؤدي فريضة الحج سافر الى بغداد ومنها الى مكة والمدينة وهناك احترف التعليم مدة اربع سنوات ولذلك سمي امام الحرمين. ولما آب الى نيسابور أسس له نظام الملك مدرسة كان يدرّس فيها حتى عاجلته المنية في العشرين من شهر اغسطس سنة ١٠٨٥ اثناء زيارته لقريته الاصلية وكان قد ذهب اليها للاستشفاء من داء ألمّ به

وعلاوة على واجباته المدرسية كان يقوم بوظيفة الوعظ والارشاد فكان يعقد اجتماعات كل يوم جمعة ليلقي فيها العظات ويشرف على

المباحثات في بعض الشؤون الفقهية ولم يقتصر على هاتين الوظيفتين بل اضاف اليها اخرى هي ادارة الاوقاف ومراقبتها . وظل يباشر هذه الوظائف الثلاث نحو ثلاثين سنة لا ينازعه فيها منازع ولما مات كان الاسف عليه شديداً والبكاء عظيماً فكسر منبر الجامع الذي كان يلقي منه عظاته وحطم تلامذته البالغ عددهم ٤٠١ تلميذاً اقلامهم ومحابرهم وانقطعوا عن الدراسة سنة كاملة» ومن المؤكد ان الغزالي جلس عند قدمي هذا الاستاذ في نيسابور وبغداد . ولا بد ان يكون قد اشترك في الحداد عليه عند موته . ولا يزال كتاب ذلك الامام الخطي المعروف «بنهاية المطلوب» محفوظاً اثراً ثميناً لفضله في دار الكتب الملكية بالقاهرة

وكان الغزالي في نيسابور من أعز تلامذة هذا الامام وتلقى على يديه علوماً واسعة فتبحر في علوم التوحيد والفلسفة والمنطق وقد كان معلماً وتلميذاً في آن واحد لانه روى عنه انه كان يقرأ للتلامذة زملائه ويعلمهم حتى ضعف جسمه وانحطت قوته من فرط التعب ولكنه لم يتنح عن دروسه بسبب اعتلال صحته وقال عنه الامام مرة هو واثنين من زملائه «الغزالي كبحر زاخر ، والقيمي كاسد مفترس ، والخوافي كنار آكلة» ومرة اخرى قال عن اولئك الثلاثة «اذا احتدم

بينهم الجدل فيفوز الخوافي بقوة براهينه ، والغزالي بشدة حملاته ، والقيعي بصراحة اقواله» وقال أحدهم ايضاً عن الغزالي في ذلك الوقت عينه «يبدو ظاهرياً على الشاب المعروف بالغزالي العجب والغرور ولكن هذه الدلائل تخفي تحتها سلامة العقل وقوة الاخلاق»

وقال مكدونالد عنه في هذا الدور من حياته : —

«لست على يقين فيما اذا كان الغزالي قد انقاد وهو في نيسابور الى شكوكه التي تكلم عنها في «المنقذ» أم لا ولابد ان تكون قد تملكت منه قبل سنة ٤٨٤ هجرية وهي نتيجة تطورات كثيرة اعترت نفسه . ولكن يحتمل ان يكون قد ظل معتصماً بالايمان القديم اثناء جلوسه تحت قدمي استاذه امام الحرمين ذلك الصوفي الغيور »

وسنرى في الفصل التالي النزعات التي استولت على نفسه ابان شكوكه وكيف ألفى منها مخرجاً حميداً بعد ان تأمل في حياة المسيح كثيراً ؟

الفصل الثالث

تعليمه — واهتداؤه — واعتزاله

تغيرت حياة الغزالي بموت امام الحرمين سنة ٤٨٧ هـ فخرج من نيسابور قاصداً معسكر نظام الملك حيث سعى جهده ليظهر على خصومه ولكي ينال اوسمة العلم . كان ذلك المعسكر محط رحال السلاطين السلجوقيين منسقاً على احسن نسق مفصلا بميادين وشوارع كانه مدينة شادتها قوة السحر على سهول قاحلة وحوى مجموعة أنيقة لالوان الخيام والمساكن المختلفة

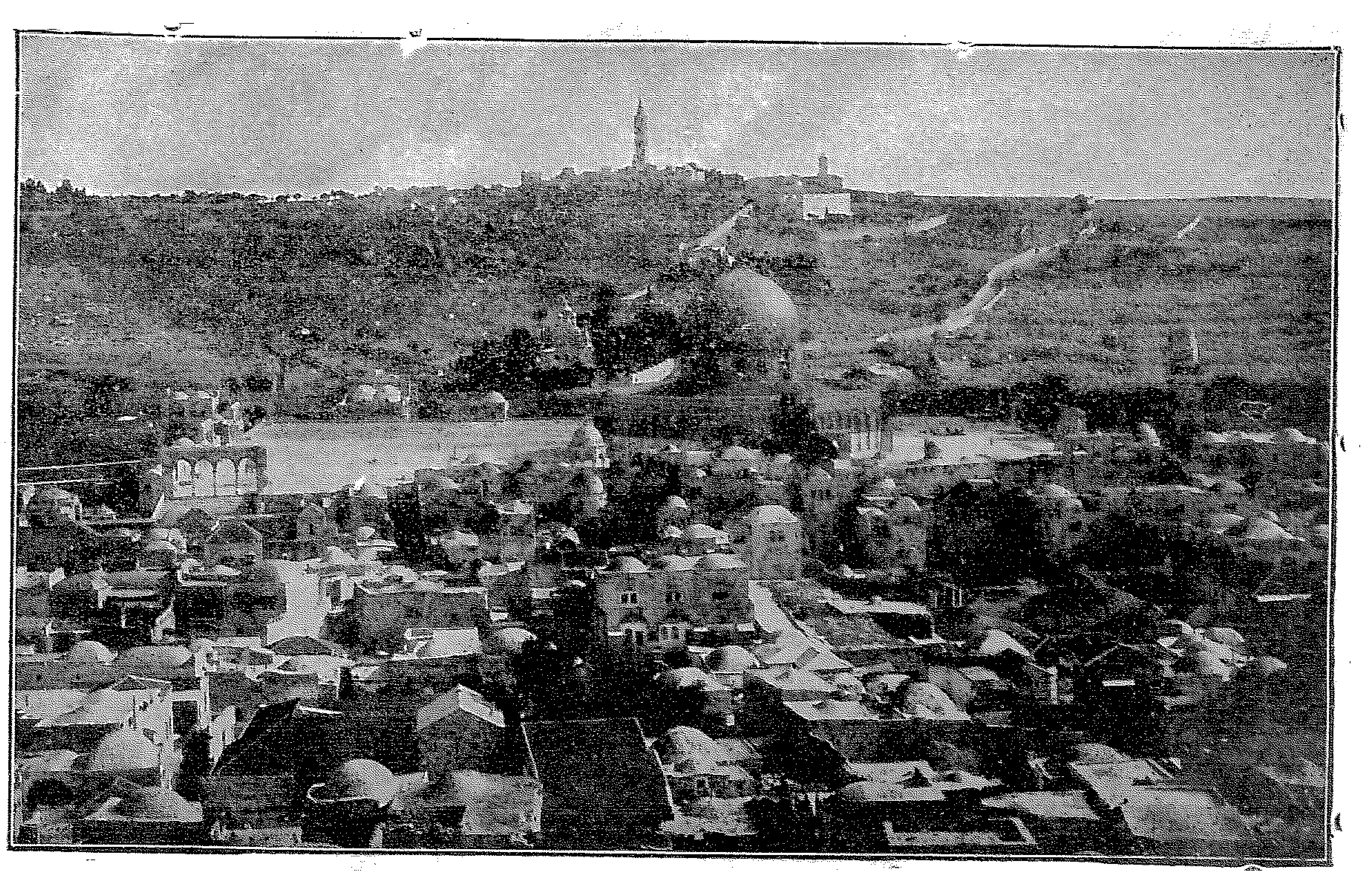
اما نظام الملك المشار اليه فقد كتب عن نفسه فذلكة تاريخية في اللغة الفارسية نترجم منها ما يأتي :—

« لقد كان الامام موفق النيسابوري من أحكم أهل زمانه بخراسان زائد الحشمة . عالي الرتبة — كرم الله نفسه — وقد بلغ عمره الخامسة بعد الثمانين وساد الاعتقاد ان من درس عليه القرآن أو تلقن من فيه الاحاديث نال الشرف والسعادة (والفأل عند التفاؤل والشؤم عند التشاؤم)

ولهذا أرسلني أبي من طوس الى نيسابور مع عبد الصمد القاضي الشرعي حتى افوز بالدرس على يد المعلم الشريف . وكان دائماً يرعاني باللطف والمعروف وكنت أحبه وأوقره الى ان صرفت بخدمته أربع سنوات . وفي اول ذهابي

رأيت تلميذين من عمري وصلا قبيل حضوري وهما . حاكم عمر الخيام وابن صباح السيء الحظ مؤسس قبيلة السفاحين (الحشاشين) وكلاهما كان ذا فطنة وذكاء وكنا اصدقاء . فكنا عند انتهاء الامام من الدرس نتقابل معاً ونعيد ما سمعناه وكان عمر الخيام من نيسابور أما ابو الحسن علي صباح فكان رجلا صعب المراس لا عقيدة له وقد حدثني هذا يوماً مع الخيام قال حيث أن تلامذة الامام ينالون حظاً فان لم ننله جميعنا سيناله احدنا فماذا يكون عهدنا المتبادل ؟ أجبنا كما تريد فقال لنتعهد ان من ينال هذا الحظ يتقاسمه مع الآخرين بالتساوي ولا يجعل لنفسه أفضلية فقلنا كما تريد وتعهدنا جميعنا فمرت السنون وتنقلت من خراسان الى وراء نهر اكسوس والى غازني وكابول (عاصمة الافغان الآن) وعند عودتي توظفت وارتقيت الى درجة وزير في عهد السلطان ألب ارسلان»

خدم نظام الملك بعد تعلمه في نيسابور ألب ارسلان خليفة السلطان طغرل بك وكانت اعباء مملكة السلجوقيين على كتفه ما ينوف على العشرين سنة وعند موت ألب ارسلان سنة ٤٦٥ خلفه مالك شاه ومن ذلك الوقت الى يوم ذبحه في العاشر من شهر رمضان كان نظام الملك اكبر رجل في الامبراطورية وحاكمها الحقيقي وكان محباً للعلوم واسس مدارس في مدن مختلفة وفي سنة ٤٨٤ طار اسم الغزالي في الآفاق واشتهر في الاقطار فولاه نظام الملك تدريس



قبة الصخرة بمدينة القدس الشريف

مدرسته ببغداد التي كانت اذ ذاك عاصمة العالم الاسلامي بالشرق

وقد صور لنا الحاخام بنيامين المولود بطوليدو صورة شيقة لمدينة بغداد عند زيارته لها بعد موت الغزالي سنة ١١٦٠ قال :—

« يبلغ محيط مدينة بغداد ثلاثة أميال وأرضها غنية بالنخيل وبالحدائق الفيحاء فلا تجاربها في جمالها بقعة اخرى فيما بين النهرين يؤمها التجار من كل الاصقاع ويقطنها علماء كثيرون وسحرة قادرون وساحة قصر الخليفة ثلاثة أميال به بستان فيه من كل فاكهة زوجان ومن كل انواع الحيوان يجري فيها الماء من نهر (دجلة) وكلما رغب الخليفة في التنزه كان المدام والطيور والاسماك واللحوم تحت أمره وأمر مشيريه الذين كان يدعوهم لمشاركته»

ثم أشار الى ما كان يحدث داخل أسوار القصور الملوكية فقال :

«كل آل بيت الخليفة معتادون على تقبيل أثوابه وكل له قصر داخل قصر الخليفة وكلهم مكبلون بسلاسل حديدية وعلى كل بيت ضابط يحرسه لكيلا يثوروا ضد مليكهم . وذلك بسببه أنهم هاجوا وعينوا ملكاً آخر فلمنع حدوث مثل هذا الأمر قرر أن يسلسل كل اقرباء الخليفة غير أنهم يسكنون كلهم داخل اسوار قصره وكلهم معتبرون ويمتلكون مدناً وقرى يجمع وكلاؤهم أجورها فيشربون ويأكلون ويتنعمون

وقصر الخليفة يحتوي على مدن كبرى بها أعمدة من الفضة والذهب وكنوز من الجواهر الكريمة ولا يترك الخليفة داره إلا مرة في السنة في شهر رمضان فيؤم المدينة الوفود المحتشدة لمشاهدة محياه فيمتطي فرسه الملكي

بملابسه السلطانية وهي مزركشة بالذهب والفضة وعلى رأسه عمامة مرصعة بأحجار ثمينة وعلى هذه العمامة حجاب أسود خفيف علامة التواضع كأنه يقول أيها الانسان كل هذه العظمة الدنيوية ستنقلب الى ظلام دامس عند الموت ويتبعه عدد كبير من أشراف المسلمين كلهم بملابس غالية ممتطين الخيل منهم أمراء بلاد العرب ومادي وفارس وحتى بلاد التيبت وهي تبعد مسافة سفر ثلاثة أشهر ويتحرك هذا الموكب من القصر السلطاني الى الجامع عند باب بصرى وهو الجامع الكبير وكل الذين في الموكب ملابسهم حريرية أرجوانية سواء من الرجال أو النساء والشوارع غاصة بجماعات الراقصين والمغنين في طريق الخليفة ويصرخون أمامه مبارك أنت ياسيدنا ومليكنا ويقبلون ثوبه ويستمر الموكب الى صحن الجامع حيث يعلو الخليفة منبراً من خشب ويخطب لهم فيقوم علماء المسلمين ويدعون له ويمتدحون تقواه وطيبة اخلاقه فيجيب الجمع آمين عند ذلك ينطق الخليفة بالبركة ويذبح جملاً يحضر لهذا الغرض وهذه هي تقدمتهم التي توزع بين الأشراف وهؤلاء يقدمون منها لأصحابهم الذين يشغفون جداً ليذوقوا لحماً مذبوحاً بيد خليفتهم ثم يترك الجامع ويرجع منصرفاً الى قصره على شاطىء نهر دجلة ويسير أزاءه أشراف المسلمين في قوارب حتى يعأ قصره ولا يعود من الطريق التي أتى منها وشاطىء النهر عليه حراسة شديدة طول السنة حتى لا يمشي احد من فوق موضع سيره ولا يخرج الخليفة من قصره ثانية قبل مرور السنة .

هو رجل صالح محسن وشيد ابنية على الشاطىء الثاني من النهر وهذه الابنية تحتوي على بيوت كبيرة وشوارع منظمة وملاجىء للمرضى الذين

يؤخذون الى هنالك للاستشفاء ويوجد هنالك نحو ٦٠ عيادة طبية وكل مريض يطلب اعانة يطعم من حساب الخليفة الى يوم شفائه ويوجد بناء كبير يدعى المارستان يحجز فيه كل فاقدي الشعور وخصوصاً في فصل الصيف ويقيدون بسلاسل حديدية حتى يعود اليهم رشدهم فيسمح لهم بالعود الى بيوتهم » اه

وقد ذكر بديع الزمان الهمذاني عن بذخ موائد بغداد فقال :

« فأفضى بنا السير الى دار :

تركت والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب
فانتقت منه طرائفه واستزادت بعض ما تهب

قد فرش بساطها ، وبسطت أنماطها ، ومد سماطها ، و (الى) قوم قد أخذوا الوقت بين آس مخضود ، وورد منضود ، ودن مفصود ، وناي وعود ، فصرنا اليهم وصاروا الينا ، ثم عكفنا على خوان ملئت حياضه ، ونورت رياضه ، واصطفت جفانه ، واختلفت الوانه ، فمن حالك بازائه ناصع ، ومن قان تلقاءه فاقع ، » (ثم قال) « كنت ببغداد عام مجاعة ، فملت الى جماعة ، قد ضمهم سمط الثريا ، أطلب منهم شيأً ، وفيهم فتى ذو لثغة بلسانه ، . فلج أسنانه ، فقال : ما خطبك ؟ قلت : حالان لا يصلح صاحبهما ، فقير كده الجوع ، وغريب لا يمكنه الرجوع ، فقال الغلام : اي الثلمتين تقدم سدها ، قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغاً ، قال : فما تقول في رغيف ، على خوان نظيف ، وبقل قطيف ، الى خل ثقيف ، ولون لطيف ، الى خردل حريف ، وشواء صفيف ، الى ملح خفيف ، يقدمه اليك الآن من لا يمطلك بوعد ، ولا يعذبك بصبر ، ثم يعلك بعد ذلك باقداح ذهبية ، من راح عنبية ، أذاك أحب اليك

أم أوساط محشوة ، وأكواب مملوة ، وانقال معددة ، وفرش منضدة ، وأنوار مجودة ، ومطرب مجيد ، له من الغزال عين وجيد ، » (مقامات بديع الزمان وجه٥١ سطر ٦ — وجه٥٢ سطر ٣ ووجه٩٠ سطر ٣ — وجه٩١ سطر ٥)

ومما تقدم يتضح لنا كيف تنعم الغزالي على مائدة نظام الملك او غيره من اصحاب الثراء وان الجوع لم يدخل اسوار بغداد

أما المدرسة النظامية التي كان الغزالي من كبار مدرسيها في فترتين من حياته فقد كانت مبنية على الشاطئ الشرقي لنهر «دجلة» بقرب معبر المراكب وبجوار الميناء والسوق . وكان تأسيسها سنة ١٠٦٥ م وغرضها تعليم شرائع الشافعية وكانت مدرسة اخرى بقربها ايضاً تسمى بالبهائية ومستشفى المارستان

وقد صلى السائح ابن جبير بالمدرسة النظامية في أول يوم جمعة بعد وصوله الى بغداد سنة ٥٧١ (١١٨٥ م) ووصفها بانها افضل من الثلاثين مدرسة التي كانت متفرقة بشرق بغداد . . . . وذكر ايضاً ان ريع الاوقاف التابعة للمدرسة كانت كافية لرواتب المدرسين وللصرف على البناء ولاعالة بعض التلامذة الفقراء

وكان سوق النظامية من اكبر أحياء ذلك القسم وقد كتب حمد الله المؤرخ الفارسي بعد ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة ويصفها

بانها «ام المدارس» ببغداد مما يبرهن انها باقية حافظة مركزها الى اواسط القرن الرابع عشر مع انها قد اصبحت أثراً بعد عين وحيث ان نيوبر المؤرخ لم يذكر في تاريخه عن خرائب مدينة بغداد شيئاً عن النظامية نستنتج انه لم يبق لها أثر من أواسط القرن الماضي وهذا هو المكان الذي ابتدأ الغزالي فيه بالعمل فأقام على الوعظ والتدريس والتعليم والفتيا والتصنيف حتى ضربت به الامثال وشدت اليه الرحال وفي اثناء نجاحه الباهر حدث له تقهقر فجأي كأنه ابتلاه مرض فضعفت صحته وفقدت شهيته واشار عليه الاطباء ان الداء ناتج عن اجهاد عقلي فترك بغداد في ذي القعدة سنة ٤٧٧ بعد ان استناب أخاه احمد في التدريس وترك كل ما يملك سوى ما يكفيه وعائلته من القوت ولم يحز اعتزاله الفجائي من عمله القبول لدى العلماء وحسبوه خسارة على الاسلام وزعم بعضهم انه هرب خوفاً من الحكومة او هرباً من المسئولية غير انه اسهب عن السبب في كتابه المنقذ من الضلال الذي يذكر فيه اختباره الديني من صباه الى بلوغه سن الخمسين قال : —

« اعلموا احسن الله إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ، ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ثم اختلاف الامة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه إلا الاقلون ، وكل

فريق يزعم انه الناجي و (كل حزب بما لديهم فرحون) وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق حيث قال: «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة » . فقد كاد ما وعد أن يكون ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، واتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلا واريد أن اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، الخ ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأرصد ما يرجع اليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً متعطلاً الا واتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جراءته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول أمري ، وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى ، وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود وصبيان الاسلام لا نشوء لهم إلا على الاسلام وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (كل مولود يولد على فطرة الاسلام

فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) فتحرك باطني الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها على الباطل »

ثم يظهر ما خامرهُ من الشك كما هو ظاهر في قوله : —

«فاذا اوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا أصل لها أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية انها حالتهم إذ يزعمون انهم يشاهدون في أحوالهم التي اذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قل رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما شاهده الآن ويقال له عند ذلك (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فلما خطرت لي هذه الخواطر انقدحت في النفس فحاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه إلا بالدليل ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الاولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فاعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » (المنقذ من الضلال وجه ٢و٦)

ولا يدهشنا جنوح الغزالي الى مذهب السفطة فقد انشئت مدارس الدهريين قبل ذلك بخمسين سنة ببغداد وبالبصرة وكانوا يجتمعون كل يوم جمعة وكان بعضهم عقليين وبعضهم ماديين ولم يكن

الفلاسفة فقط بين زمرتهم بل كان الشعراء في مقدمتهم ومنهم ابو العلاء المعري المولود سنة ٩٧٣ ويقال ان هذا الشاعر الاعمى كتب قرآناً تقليداً لقرآن محمد ولما اعترض بعضهم ان الكتاب مع بلاغته ليس له تأثير القرآن اجاب «ليتل من منابر المساجد اربعة قرون (مثل القرآن) وبعد ذلك تسرون به» (كأن التأثير في التكرار)

نعم ان اشعاره مشكوك فيها من المسلمين الآن لانها تنم عن عدم الاعتقاد لا بالله ولا بمحمد وهو في ذلك يضاهي عمر الخيام القائل :—

قل لمن يسعى وراء العاجلهْ ولمن يرجو نوال الآجلهْ

همتما بالترّهات الباطلهْ ليس في المعدوم مأمول ولا

كائن داني الاذى فيه انتفاع

ثم باب لم أجد مفتاحه وكتاب لا أعي اصحاحه

وقصارى المرء صوت بحه في(انا)او(انت)يهذي جدلا

و(انا) او (انت) رهن بضياع

قل لمن يهوى بميدان الجدل ان يضل العقل في لغز الاجل

حبذا لو في تلافيف الخصل ضل كفاك بتيه اظلما

من دياجي فرع هيفاء القوام

قد صنعت اليوم عرساً عجباً   لزواج يزدهـــيني طرباً
مؤثراً تطليق عقلي المجدبا   لاحتضان الكأس صباً مغرماً
بعروس ريقها يبري السقام

انا مهما رمت تكييف الابد   والفنا حمقاً بوزن او بعد
انعت الروح بتعريف وحد   لم انل اعماق شئ غير ما
خضت من اعماق ابريق وجام

هالني ان لا ارى ممن عرا   منهج الموت المخوف المنكرا
عائداً يروي لنا ما ابصرا   في طريق مظلم لن يعلما
ما حواه غير رواد الحمام

غير اني لا ارى الجسم سوى   نزل افضى اليه فثوى
ملك ازمع للموت نوى   ثم ارداه غشـــوم دهما
ولضيف آخر اخلى المقام

انني ارسلت روحي آنفاً   في دياجي الغيب كيما اكشفا
غامضاً من عالم الخلد اختفى   فانثنى روحي ونبا انمـــا
انا فردوس صفا نار انتقام

(رباعيات عمر الخيام ترجمة الاستاذ محمد السباعي
طبع دار احياء الكتب العربية بمصر)

فكان الاسلام في القرن الحادي عشر الهجري كما كانت المسيحية في القرن التاسع عشر الميلادي وكان قد اشتد النزاع بين العلم والدين، فمدرسة العقليين المعتزلة كان لها نفوذ كبير بينما نجد التقليديين (السنيين) ممتازين بتشبثهم بفروض ديانتهم اكثر من شهرتهم بتقواهم كالفريسيين في وقت المسيح

وليس لنا الا ان نلقي نظرة على ما سطره الهمذاني في مقاماته فندرك مقدار احترام التقليديين (السنيين) لشعائر العبادة في تلك الايام قال :—

« حدثنا عيسى بن هشام قال كنت باصفهان اعتزم المسير الى الري، فحللتها حلول الفي . اتوقع القافلة كل لمحة ، واترقب الراحلة كل صبحة . فلما حم ما توقعته ، نودي للصلاة نداء سمعته . وتعين فرض الاجابة ، فانسللت من بين الصحابة . اغتنم الجماعة ادركها ، وأخشى فوت القافلة اتركها . لكنني استعنت ببركات الصلاة على وعثاء السفر فصرت الى اول الصفوف، ومثلت للوقوف . وتقدم الامام الى المحراب، فقرأ فاتحة الكتاب . بقراءة حمزة ، مدة وهمزة وبي الغم المقيم المقعد في فوت القافلة، والبعد عن الراحلة . واتبع الفاتحة الواقعة وانا أتصلى بنار الصبر واتصلب، واتقلى على جمر الغيظ واتقلب . وليس

إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر. لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام. فوقفت بقدم الضرورة، على تلك الصورة، الى انتهاء السورة. وقد قنطت من القافلة، وأيست من الرحل والراحلة. ثم حنى قوسه للركوع، بنوع من الخشوع، وضرب من الخضوع. لم اعهده من قبل ثم رفع رأسه ويده، قال سمع الله لمن حمده. وقام، حتى ما شككت انه قد قام. ثم ضرب بيمينه، وأكب لجبينه، ثم انكب لوجهه. ورفعت رأسي انتهز فرصة، فلم أرَ بين الصفوف فرجة. فعدت الى السجود، حتى كبر للقعود، وقام للمرة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة. قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة. فلما فرغ من ركعتيه، واقبل على التشهد بلحييه، ومال الى التحية بأخدعيه. وقلت قد سهل الله المخرج، وقرب الفرج. قام رجل وقال من كان منكم يحب الصحابة والجماعة، فليعرني سمعه ساعة. الخ. الخ» (مقامات بديع الزمان الهمزاني وجه ٣٦ و٣٧) فهذا كان تأثير الفروض الدينية

ولم يجد الغزالي مساعدة لازالة شكوكه من جهة هؤلاء العلماء بل لم يجدها مسلم من جهتهم الى يومنا هذا، ويذكر الاستاذ مكدونالد السبب في قوله :—

«سلم للعلماء بمقدماتهم فيمكنهم اقامة الحجة اما اذا رفضت تلك المقدمات فانهم لا يجدون نقطة للاتفاق» ولقد وضع علمهم الاشعري لمحاجة المعتزلة وقد نجحت طريقته في ذلك فقط ولم تتعده . فيمكنهم

اقامة الدليل على الهراطقة والملحدين ويبرهنون على ضعفهم وتناقضهم ولكنهم لا يستطيعون شيئاً امام السفطة. لقد سعوا جهدهم لمقارعة الفلاسفة بحججهم ولكنهم فشلوا اذا اعوزهم العلم والتجأوا الى «الادلة النقلية» وهي ملجأهم الوحيد

ومع انه درس كل أساليب تلك الايام وفندها لم يجد نوراً في الفلسفة، فالدين ليس للعقل فقط بل للقلب ايضاً. ان الفلسفة لا تقنع الا المخيلة ولكنها تترك الباطن في ظلام دامس. ثم فحص اقوال التعليميين المناقضين للاسماعيليين ولكنه صنف كتباً ضد آرائهم فبعد ان فحص كل طريق لم يبق لديه سوى التصوف وكان ذلك عوداً منه الى التعاليم الاولى التي تلقنها بطوس ونيسابور والى عادات واساليب بلاده التي مكثت قروناً في التصوف. وقال الغزالي عن ذلك ما معناه.

لما اردت ان انخرط في سلك القوم واشرب من شرابهم نظرت الى نفسي فرأيت كثرة حجبها ولم يكن لي شيخ اذ ذاك فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة اربعين يوماً فانقدح لي من العلم ما تأكد عندي اصفى وارق مما كنت اعرفه فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة اربعين يوماً فانقدح لي علم آخر ارق واصفى مما حصل عندي اولاً ففرحت به ثم نظرت

فيه فاذا فيه قوة نظرية فرجعت الى الخلوة ثالثاً اربعين يوماً فانقدح لي علم آخر هو ارق واصفى فنظرت فيه فاذا فيه قوة ممزوجة بين علم الظاهر وعلم الباطن ولم أُلحق بأهل العلوم اللدنية فعلمت ان الكتابة على المحو ليست كالكتابة مع الصفاء الاول والطهارة الاولى ولم اتميز عن النظار الا ببعض امور (انظر خلاصة هذا في المنقذ من الضلال وجه ٣٠ سطر ١٦ — وجه ٣١ سطر ٩)

فمن يقرأ هذا ويشك في اخلاصه التام في لغته عن الله وعن الحق في الاسلام وكتب المسيحية ايضاً ؟ ويتمم حكايته في المنقذ بقوله :—

«اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة فعلمت يقيناً انهم أرباب أحوال لا اصحاب اقوال وان ما يمكن تحصيله بطريقة العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعليم بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها في والمسالك التي سلكتها التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر فهذه الفصول الثلاثة عن الايمان كانت رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد بل باسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من الجوانب. ولاحظت اعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار واني قد اشفيت على نار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة وانا بعد على مقام الاختبار اصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً واحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه اخرى لا يصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام ومنادي الايمان ينادي الرحيل الرحيل فلم يبق من العمل إلا القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما انت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار. ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة واياك تطاوعها فانها سريعة الزوال فان اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي من التكدير والتنغيص والامر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما ألفت اليك نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعماية وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطبيباً لقلوب المختلفين اليّ فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا استطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطل معه قوة الهضم ومرء الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي شربة ولا ينهضم لي لقمة وتعدى الي ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج وقالوا هذا امر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاهل والولد »

ومما يدل على ان اهتداءه ليس كما يفهم من معنى الكلمة المسيحي ما يأتي من كلامه عن تفننه في الحيل كغيره من العلماء الاعلام الخ :—

«وأظهرت عزم الخروج الى مكة وانا اوري في نفسي سفر الشام حذراً من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعودها ابداً واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان

ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ واعراضي عنهم وعن الالتفات الى قولهم فيقولون هـذا أمر سماوي وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم ففارقت بغداد وفرغت ما كان معي من المال ولم اذخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصاً بان مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين فلم ار في العالم ما لا يأخذه العالم لعياله أصلح منه ثم دخلت الشام وقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار أغلق بابها على نفسي » (المنقذ من الضلال وجه ٢٧ الى وجه ٣٠)

ليس من الغرابة ان يترك الغزالي الوسط العالي الذي كان فيه ويتجول سائحاً فقد كانت العادة في عصره ليس لرجال الدين فقط بل لغيرهم ان ينشدوا الراحة من عناء الاعمال في الاسفار والتجول اما اهل الدين فقالوا انهم يتمثلون بالمسيح الذي دعي هكذا لانه كان سائحاً (راجع كتاب الدرة الفاخرة وجه ٤٣ سطر ١٣) والعالميون تسربلوا بلباس الزهد والتنسك رغبة منهم في مشاهدة البلدان المختلفة

ولسهولة المواصلات بالبريد والقوافل كان ذلك الزمن أ كثر الازمنة اسفاراً فلم يكن طالب العلم ليكتفي ما لم ير العالم الاسلامي فالتبريزي (١٠٣٠ — ١١٠٠ ب.م) أحد معاصري الغزالي وكان ايضاً مدرساً بالمدرسة النظامية كان كلما رغب في سفرة وضع كتبه في كيس ومشى على قدميه من فارس الى الشام حتى ان العرق خرج من ظهره وصبغ المخطوطات التي كانت عنده والتي حفظت بعدئذ في احدى مكاتب بغداد لعرضها على الزوار . وان الشاعر الفارسي السعدي الذي ترك يتيماً في حداثته فذهب الى بغداد ليتلقن العلم بالمدرسة النظامية حج الى مكة عدة مرات وكان له رغبة في عمل الخير يسقي ماء في اسواق بيت المقدس ومدن سوريا فأسره الفرنسيون والزموه بالشغل مع اليهود في تنظيف خنادق طرابلس بسوريا الى ان افتداه حلبي وازوجه من ابنته وهو يذكر زياراته الى كاشيجار من اعمال تركستان والحبشة وآسيا الصغرى وساح ايضاً في الهند ماراً بأفغانستان في طريقه . وامامنا الآن مثال عن درويش خيالي لكنه «مُرَاءٍ» ما جن بمقامات الهمذاني وهذا الدرويش قال: فخرجت اسيح، كأني المسيح، (حاشا لله) فجلت خراسان ، الخراب منها والعمران ،

الى كرمان وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان ، والى عمان ، الخ»
(مقامات بديع الزمان)

غير ان سائحاً اميناً كالغزالي لم تكن الحياة سهلة عليه فكانت مصاعب الاسفار ومتاعب الوحدة لا تبلغ شيئاً من تذلل السائل وعار الطريق وقد وصف الحريري كل ذلك في احدى مقاماته فقال :—

«نهضت من مدينة السلام ، لحجة الاسلام ، فلما قضيت بعون الله التفث ، وخلطت بين السمين والغث ، صادف موسم الخيف ، معمعان الصيف ، فاستظهرت للضرورة ، بما يقي حر الظهيرة ، فبينما انا تحت طراف ، مع رفقة ظراف ، وقد حمي وطيس الحصباء ، وأعشى الهجير عين الحرباء ، اذ هجم علينا شيخ متسعسع ، يتلوه فتى مترعرع ، فسلم الشيخ تسليم أديب أريب ، وحاور محاورة قريب لا غريب ، فأعجبنا بما نثر من سمطه ، وعجبنا من انبساطه قبل بسطه ، وقلنا له ما أنت ؟ وكيف ولجت ، وما استأذنت ، فقال أما أنا فعاف ، وطالب اسعاف ، وسر ضري غير خاف ، والنظر الي شفيع لي كاف ، واما الانسياب ، الذي علق به الارتياب ، فما هو بعجاب ، اذ ما على الكرماء من حجاب ، فسألناه أنى اهتدى الينا ، وبم استدل علينا ، فقال ان للكرام نشراً تنم به نفحاته ، وترشد الى روضه فوحاته ، فاستدللت بتأرج عرفكم ، على تبلج عرفكم ، وبشرني تضوع رندكم ، بحسن المنقلب من عندكم ، فاستخبرناه حينئذ عن لبانته ، لنتكفل باعانته ، فقال ان لي مأرباً ، ولفتاي

مطلباً ، فقلنا له كلا المرامين سيقضى ، وكلا كما سوف يرضى ، ولكن الكبر الكبر ، فقال اجل ومن دحا السبع الغبر ، ثم وثب للمقال ، كالمنشط من العقال ، وانشد :

اني امرؤ ابدع بي	بعد الوجى والتعب
وشقتي شاسعة	يقصر عنها خببي
وما معي خردلة	مطبوعة من ذهب
فحيلتي منسدة	وحيرتي تلعب بي
ان ارتحلت راجلا	خفت دواعي العطب
وان تخلفت عن الر	فقة ضاع مذهبي
فزفرتي في صعد	وعبرتي في صبب

الى ان قال :

فليت اني لم اكن	ارضعت ثدي الادب
فقد دهاني شؤمه	وعقني فيه ابي

فقلنا له اما انت فقد صرحت ابياتك بفاقتك، وعطب ناقتك، وسنعطيك ما يوصلك الى بلدك ، فما مأربة ولدك ، الى آخر ما طلب ولده من الطعام»

وهذا الذي ذكره الحريري انما هو ضرب واحد من ضروب احتياجات السائحين الكثيرة في طلب العلم والادب فضلاً عن حاجات السائحين المتصوفين الزاهدين المفتشين عن الحق كالغزالي — فليتهم وصلوا الى حق الفداء الالهي

الفصل الرابع

رحلاته وأخريات ايامه وموته

ان تاريخ الغزالي محوط بالامور المربكة حتى لاولئك الكتاب الذين سطروا مؤرخاتهم بعد موته بقرن واحد. فهناك بعض الغموض في تاريخ سفراته وترتيبها الزمني بل وخلاف في اسماء الاماكن التي جابها ونحن نعلم ان تاريخ اهتدائه (بعد شكوكه) هو سنة ٤٨٨ للهجرة (١٠٩٥ ب.م) حيث كان في الثامنة والثلاثين من عمره وقد نفي بعد ذلك بامد قصير وقد قيل انه عاد بعد ذلك سنة ٤٩٨ للهجرة (١١٠٤ ب.م) وقضى عامين في سوريا وفلسطين معتزلاً. واما التواريخ الاخرى فليست مؤكدة واذا اخذنا باقوال اوثق المصادر خصوصاً كتابه «المنقذ من الضلال» فليس امامنا الا ان نورد هنا بقية القصة التي جئنا على بعض منها في الفصل السابق. قال الغزالي :—

«ثم دخلت الشام واقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا الخلوة والعزلة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وبتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق اصعد منارة المسجد طول النهار واغلق بابها على نفسي ثم رحلت منها الى بيت المقدس ادخل كل يوم الصخرة واغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة . . . فسرت الى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعاودته بعد ان كنت ابعد الخلق من الرجوع اليه وآثرت العزلة ايضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة لكن مع ذلك لا اقطع الطمع منها فتدفعني عنها العوائق واعود اليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي اذكره لينتفع به اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلاً فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به» (كتاب المنقذ من الضلال وجه ٣٠ و٣١)

ويؤخذ من هذه الاقوال ان حجه الى القدس والخليل والمدينة ومكة انما كان جزءاً من رحلته الكبرى وهي الطريق الاصلي لكل مسافر من بغداد الى مهد الاسلام ولذلك نرجح عدم صحة الرواية التي يقولها البعض من انه بقي عشر سنوات في دمشق واذا اخذنا باقوال

الاسناوي كانت الخلاصة كما يأتي : بدأ في رحلته الى الحجاز سنة ١٠٩٥ ب.م وعند رجوعه من الحج عرج على دمشق واقام هناك ردحاً من الزمن في مأذنة الجامع الاعظم (الاموي) واخذ بتصنيف بعض مؤلفاته التي منها «الاحياء» على ما يقولون. وبعد زيارة بيت المقدس والقاهرة والاسكندرية عاد الى وطنه في طوس

وقد قيل في أحد المصادر العربية انه لما ترك الغزالي دمشق كان يرافقه تلميـذ يدعى ابو طاهر ابرهيم وكان تلميذاً للامام الاعظم في نيسابور وبعد ذلك عاد الى جرجان مسقط رأسه حيث استشهد هناك سنة ٥١٣ هجرية وقد ذكر له ايضاً اسماء تلاميذ كثيرين في دمشق ولكن الثقات يأبون الموافقة على ذلك

وقد زار الغزالي في بيت المقدس المسجد الاقصى وقبة الصخرة وقد جاء في سورة الاسراء ان محمداً أُسري به من مكة الى القدس الشريف : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا» ولكن ابنة عمه لم تصادق عليه حسب رواية كتبهم

وهنا رأى الغزالي اثناء الزيارة آثار قدمي محمد في الصخر وهو صاعد الى السماء (كما يظنون) والامكنة التي صلى فيها ابرهيم وايليا

والحجر المستدير الذي اخترقه محمد في الصخرة وهو صاعد الى سماء تصوراته والمكان الذي انتصب عليه واللسان الذي تكلم به وآثار اصبع الملك جبريل الذي كان يسنده اثناء الصعود !! ويشير المسلمون اليوم الى المكان الذي عذب فيه سليمان الجن والى مكان آخر قريب من السور الشرقي حيث جلس سليمان على عرشه وهو ميت وحيث ظلت الجثة رابضة هنالك لتخدع الشياطين حتى اكلتها الديدان وسقط الجسد الخ وهذا كله موجود في الحديث الاسلامي ولا بد ان يكون قد اثار الشكوك في نفس الغزالي . وقد وصف احد الرحالة الحديثين بعض الخرافات القصصية الاسلامية الخاصة بالاماكن التي حول هذا المسجد بقوله :

« يقولون عن الاروقة الصغيرة في اعلى الدرجات انها الموازين التي تقام يوم الدين . واسم «قبة السلسلة» مأخوذ من الاعتقاد بوجود سلسلة ذهبية معلقة عند كرسي قضاء داود يمسكها الشهود وتسقط منها حلقة اذا كذبوا في اقوالهم — وهنالك مكان في السور الخارجي يقال ان منه يتدلى سلك في يوم الدينونة يربط طرفه الآخر بجبل الزيتون ويجلس المسيح على السور ومحمد على الجبل ويعبر هذا السلك جميع الناس ولكن لا يتخطاه الا الصالحون واما الطالحون فيهوون الى الوادي الممتد من تحت ويوجد في المسجد الاقصى عمودان متقاربان وفي الفراغ الواقع بينهما يرى الناظر قطعة من الحديد

المسبوك ويقولون ان هنا ايضاً معبراً آخر فكل من جاز هذا الممر وعبر هذا الضيق وصل آمناً الى السماء»

ولدينا الآن وصف لبيت المقدس كتبه كاتب مسلم في اواخر القرن العاشر ووصف لآخر كتبه في منتصف القرن الحادي عشر وقد قدر هذا سكان المدينة بعشرين الف نسمة وقال ان الحجاج من المسلمين والمسيحيين واليهود كانوا يفدون اليها افواجاً للتبرك باماكنها المقدسة . والكاتبان يمتدحان نظافة المدينة وحسن موقعها الجغرافي واتقان المصارف الطبيعية فيها ومع هذا كله فان تاريخ بيت المقدس في ذلك العصر انما كان سلسلة تخريب وترميم للاماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين على السواء ففي سنة ١٠١٠ ب.م دمرت كنيسة القيامة المسيحية على يد السلطان المختل العقل الحاكم بامر الله وعقب ذلك سلسلة اضطهادات وقعت على الحجاج حتى قام بطرس الناسك محتجاً وبدأت من ذلك العصر الحروب الصليبية التي ترتعد لذكراها الفرائص

وليس لدينا بيان واف لتاريخ الفترة التي قضاها الغزالي في بيت المقدس وكيف قضى ايامه هناك . غير اننا نعلم انه في ذلك العصر كانت سوريا كلها غارقة في لجج الحروب الصليبية والاضطرابات

الاخرى وانا نظن ان الغزالي درس الحالة هناك بغايه الاهتمام ولا بد
ان يكون ذلك البطل المسلم الغيور قد هزته الحوادث القادمة التي
كانت اشباحها ظاهرة في الارض المقدسة ابان زيارته لها . وانا نعلم
ايضاً انه قضى تلك الفترة كمتصوف وعكف الى الصلوات والاصوام
ولا يخفى ان للصلوات مكانة رفيعة في حياة كل مسلم غيور
فعلاوة على الصلوات الخمس كانت هناك صلاة الليل التي يجب ان
تؤدى حسب شهادة الغزالي نفسه بين منتصف الليل ومطلع الفجر
حتى قيل ان المسلم الغيور الذي يؤدي فرائضه يكرر قراءة الفاتحة
سبعين مرة على الاقل في اليوم وعلاوة على هذه الصلوات توجد
صلوات اخرى تسمى وتراً كانت تؤدى بعد صلاة الليل (والضحى)
وهي التي تؤدى قبيل الظهر وصلاة الليل التي تؤدى بين صلاة العشاء
الاخيرة ومنتصف الليل وعلاوة على تأدية هذه الصلوات المذكورة
آنفاً كان الغزالي يأمر اولئك الذين يرومون الوصول الى درجة الكمال
بان يعكفوا على ممارسات اضافية اخرى تسمى «الورد» وقد اشار
الى هذه الممارسات الصوفية في كتاب (احياء علوم الدين ج ١ وجه
٢٣٠ — وجه ٢٤٨) وعلى هذا فكل مسلم غيور يأتمر بهذه الاوامر

لايجد وقتاً ليحصل فيه المعاش. فمن اين يعيش ؟ هل يسرق ام يصوم الدهر ويعرى ام يعيش عالة على الغير ؟ ؟ ؟

وعلاوة على هذه الممارسات المفصلة في الاحياء اضيف اربعة أخر وهي الصوم والزكاة وعيادة المرضى وحضور الجنائز وفوق هذه كلها نوع مخصوص من العبادة يعرف «بالذكر» وهي عبادة خاصة بالاولياء واتباعهم من المتصوفين

وقد وصف الغزالي اسلوب ونتائج هذه الممارسة في عبارة لخصها عنه مكدونالد بقوله :—

«يفرغ العابد قلبه ويجلس منعزلاً في احدى الزوايا محدداً واجباته الدينية الى الحد الضروري فقط ولا يشغل نفسه بتلاوة القرآن ولا تفهم معانيه ولا كتب الاحاديث الدينية ولا أي شيء آخر من هـذا النوع ولا يتصور في مخيلته شيئاً غير الله سبحانه وتعالى ثم يقول وهو جالس في عزلته باستمرار «الله الله» (أو ما يرادفه من اسماء الله تعالى) مفكراً فيه طول الوقت حتى يصل الى درجة يقف فيها لسانه عن الكلام ويخيل اليه ان الكلمة تنساب من لسانه انسياباً ثم يداوم على ذلك حتى يفقد لسانه كل حركة ويبقى قلبه عالقاً بهذه الفكرة ثم يستمر حتى تنتزع هذه الكلمة بحروفها وشكلها من قلبه ولا تبقى الا الفكرة متصلة بقلبه اتصالاً وقد كان كل شيء معلقاً على ارادته واختياره ولكن احكام رحمة الله لا تقف في سبيل ارادته أو اختياره فانه

الآن قد وضع نفسه امام نسمات هـذه الرحمة ولم يبق عليه الا ان ينتظر ما سيعمله له الله كما فعل مع انبيائه وقديسيه واذا اتبع الخطة المشار اليها آنفاً يثق تمام الثقة بان نور الحق سيضيء على قلبه ويكون في بادىء الامر غير مستديم كلمحات البرق فيروح ويجيء ويلبث احياناً ويختفي اخرى وفي حالة استقرار ذلك النور قد يطول امده أو يقصر »

هذه هي تعاليم الغزالي عن حياة العبادة الحقيقية وانا نعتقد انه مارسها فعلاً اثناء اقامته بدمشق وبيت المقدس خلال السنوات التي عقبت حياته في المنفى ويمكن تلخيص كل ذلك انه داوم على تكرار اسماء الله الحسنى وصلى بلا انقطاع في العرف الاسلامي ولا نعلم كم متسعاً من الوقت في النهار يبقى بعد ذلك لمباشرة التأليف والتعليم (والله بكل شيء عليم) ؟؟؟

ويقال انه كتب رسالته القدسية اثناء وجوده في بيت المقدس ولا بد ان تاريخ زيارته لها كان بعد سنة ٤٩٢ ب م بقليل لانه في تلك السنة استولى الصليبيون على المدينة (ونحن كمسيحيين لا نحبذ الحروب لان ديننا دين سلام وكل من يتسبب فيها لا يكون عمله من الله)

وقد كان من الامور الطبيعية ان يؤدي شخص كالغزالي واجب

الطاعة والاجلال امام قبر ابرهيم الذي يسميه المسلمون خليل الله والاسلام يدعى في القرآن ملة ابرهيم ولا يخفى ان التقاليد تضع مغارة المكفيلة في الطرف الشرقي من حبرون الحالية على حافة الوادي فيزعمون ان المسجد القائم الآن هناك يضم بين جدرانه قبر الخليل وحبرون هذه تبعد عن بيت المقدس سبعة عشر ميلاً الى الجنوب الغربي وكانت مغارة المكفيلة قبل القرن الثاني عشر جاذبة لانظار الزائرين والحجاج فقد قال بنيامين توديلا: «يوجد في حبرون مكان فسيح للعيان يسمى النبي ابرهيم وكان قبلاً مجمعاً يهودياً وقد اقام الوطنيون هناك ستة قبور يقولون عنها للاجانب انها قبور الآباء الاولين وزوجاتهم ويتقاضون منهم اجراً نظير زيارتهم واذا اعطى احد اليهود اجراً اضافياً الى حارس المغارة ينفتح باب من الحديد يرجع عهده الى عصر الآباء الاولين وينزل الزائر على نور شمعة ثم يعبر مغارتين فارغتين ويرى في الثالثة ستة قبور منقوش عليها بالاحرف العبرية اسماء الآباء الاولين الثلاثة وزوجاتهم والمغارة مملوءة بصناديق من الخشب حاوية لعظام بشرية قد جيء بها هناك لتقديس المكان في نظر الزائرين . وفي طرف مغارة المكفيلة توجد دار ابرهيم وامامها نافورة من المياه»

ويحتوي مسجد حبرون المقام على مقبرة ابرهيم في الوقت الحاضر على منبر مربع الزوايا يبلغ طوله سبعون ياردةً وعرضه خمس وثلاثون غير ان قليلاً من المسيحيين رأوا منظر تلك المقبرة لانه غير مصرح لغير المسلمين بالاقتراب الى المداخل بعد الدرج السابع في السور الشرقي

وقد قال احد السياح حديثاً عن سذاجة الناس في فلسطين:—

«يقولون انه يوجد في الحائط ثقب موصل للمغارة فيكتب اليهود الخطابات الى ابراهيم ويضعونها في الثقب معبرين له عن سوء معاملة المسلمين لهم ولكن الاولاد الاشقياء من اولاد المسلمين يعلمون ان الثقب ليس عميقاً فيجمعون هذه الخطابات ويحرقونها قبل ان يكون ابرهيم قد رآها !!»

وحبرون هذه من اقدم مدن العالم ورويت عنها الروايات المختلفة حتى قيل عنها في عصر الغزالي انها مكان خلق آدم وموته ومقتل هابيل والمكان الذي اقام فيه ابرهيم

ويحتمل ان يكون الغزالي قد توجه الى مكة بعد ان زار حبرون. ولا نعلم ان كانت رحلته براً او بحراً وعلى اية حال كانت محفوفة بالمخاطر في ذلك العهد ومن المحتمل ان يكون الغزالي قد سار في طريق القوافل التي هي طريق حجاج دمشق في يومنا هذا وكان من اللائق

ان يزور الغزالي مكة اولاً ثم يعرج على المدينة وهو راجع . وهو يوصي بنفسه باتباع هذه الخطة في فرائض الحج

وقد كانت مكة في ايام حج الغزالي تحت حكم الشريف ابو هاشم (سنة ١٠٦٣–١٠٩٤ ب.م) وبعد ذلك بنصف قرن استولى الكرماتيون على المدينة بعد خصام طويل وهم اكثر الطوائف الاسلامية تعصباً فقتلوا الوفاً من الحجاج بحد السيف وحملوا الحجر الاسود الى البحرين في الخليج الفارسي وظنوا انهم بابعاد هذا الاثر المقدس يبطلون الحج ولكن راش سهمهم ففي سنة ٩٥٠هـ اعيد الحجر بفدية عظيمة ولكثرة المنازعات بين خلفاء بغداد ومصر وكّل امر حماية الاماكن المقدسة الى آل الشريف وكان ابو هاشم هذا خادماً لذاته فاهتم بالحصول على الرشاوي اكثر من اهتمامه بالدين كما تؤيد ذلك شهادات المؤرخين من العرب ففي سنة ١٠٧٥هـ باع هذا الامتياز الى الفاطميين وفي سنة ١٠٧٦ باعه الى خلفاء بغداد فاغاظ هذا العمل سلطان بغداد حتى حمله ذلك على ارسال عصابات من التركمان ضد مكة سنة ١٠٩١هـ

ويدل تاريخ ذلك العالم على ان الحج الى هذه المدينة المقدسة كان محفوفاً بالاخطار نظراً لسطو قطاع الطرق من البدو على المسافرين

وللارتباكات الداخلية في مكة نفسها وهذه كلها كانت تدبر أحياناً بدسائس ابو هاشم نفسه كما حدث سنة ١٩٩٤ (فويل للحجاج المساكين من الزعماء المرتشين !!)

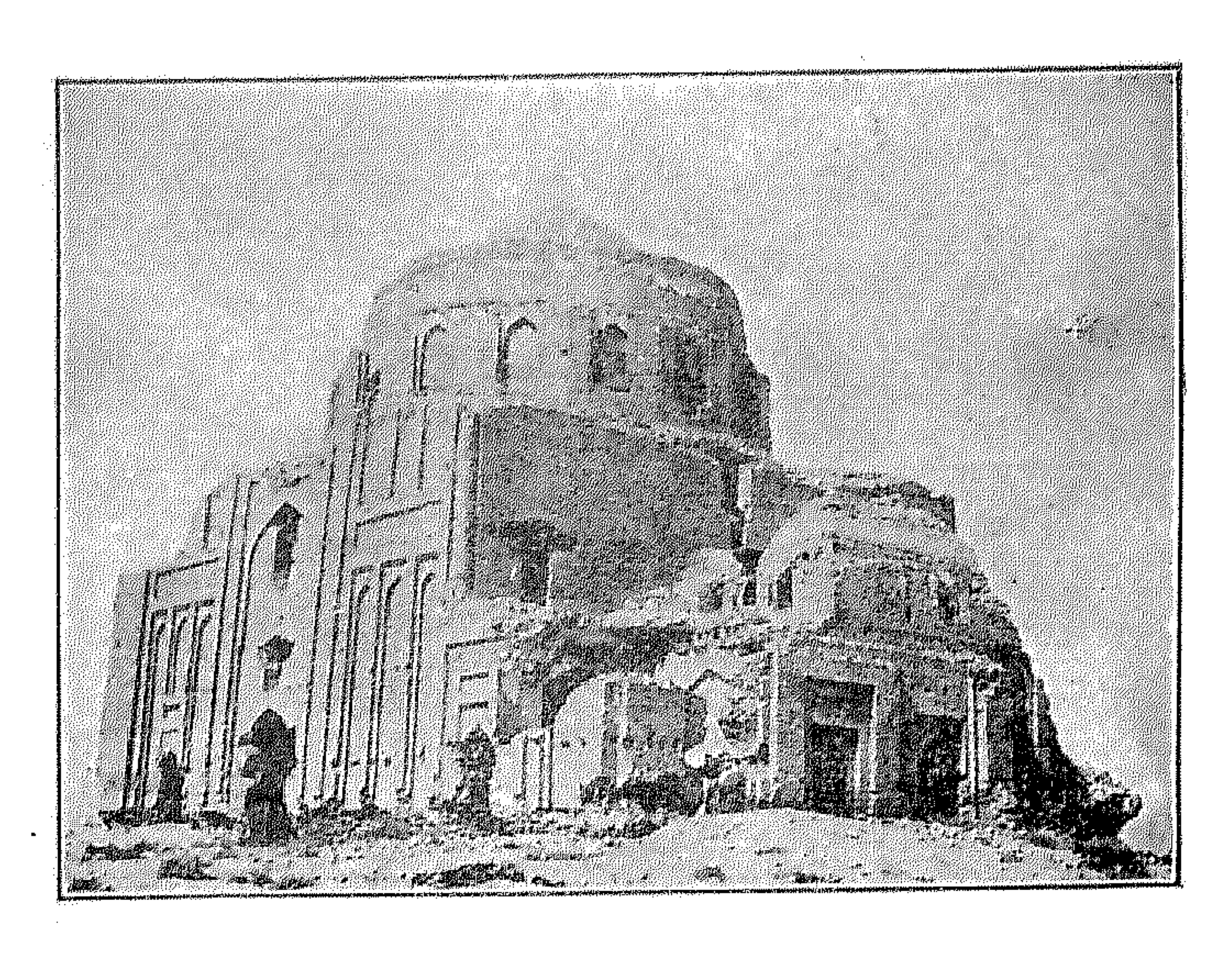
وقبيل زيارة الغزالي لمكة كانت مباني المدينة وبيت الله قد اصلحت وزينت واعيد بناء المقامات الاربعة سنة ١٠٧٤ وقد كان مقام الشافعي امام مذهب الغزالي فوق بئر زمزم وما زال البناء الذي شيد سنة ١٠٧٢ قائماً الى اليوم وأما منبر الرخام الابيض الموجود هناك فقد بعث به سلطان مصر سنة ٩٦٩ ب . م ولا يزال مستعملاً الى اليوم ويحتمل جداً ان يكون الغزالي صعد هذه الدرجات عينها وخاطب الحجاج . وفي سنة ١٠٣٠ ب . م طغى سيل جارف على مكة كاد يدمر الكعبة ولم تنته التصليحات حتى سنة ١٠٤٠

ونستطيع القول ان زيارة الغزالي لمكة والمدينة قد أخرجته من حياة العزلة الشديدة لانه اعتزم بعد ذلك على زيارة الاندلس وسلطان الغرب الاكبر يوسف بن تشفين الذي كان يصدر الفتاوي بالنيابة عنه ولكن أخبار موت السلطان قد ارجعته عن هذا العزم كما يؤخذ من بعض المصادر وان قال آخرون انه استدعي ليعلم ثانية في نيسابور

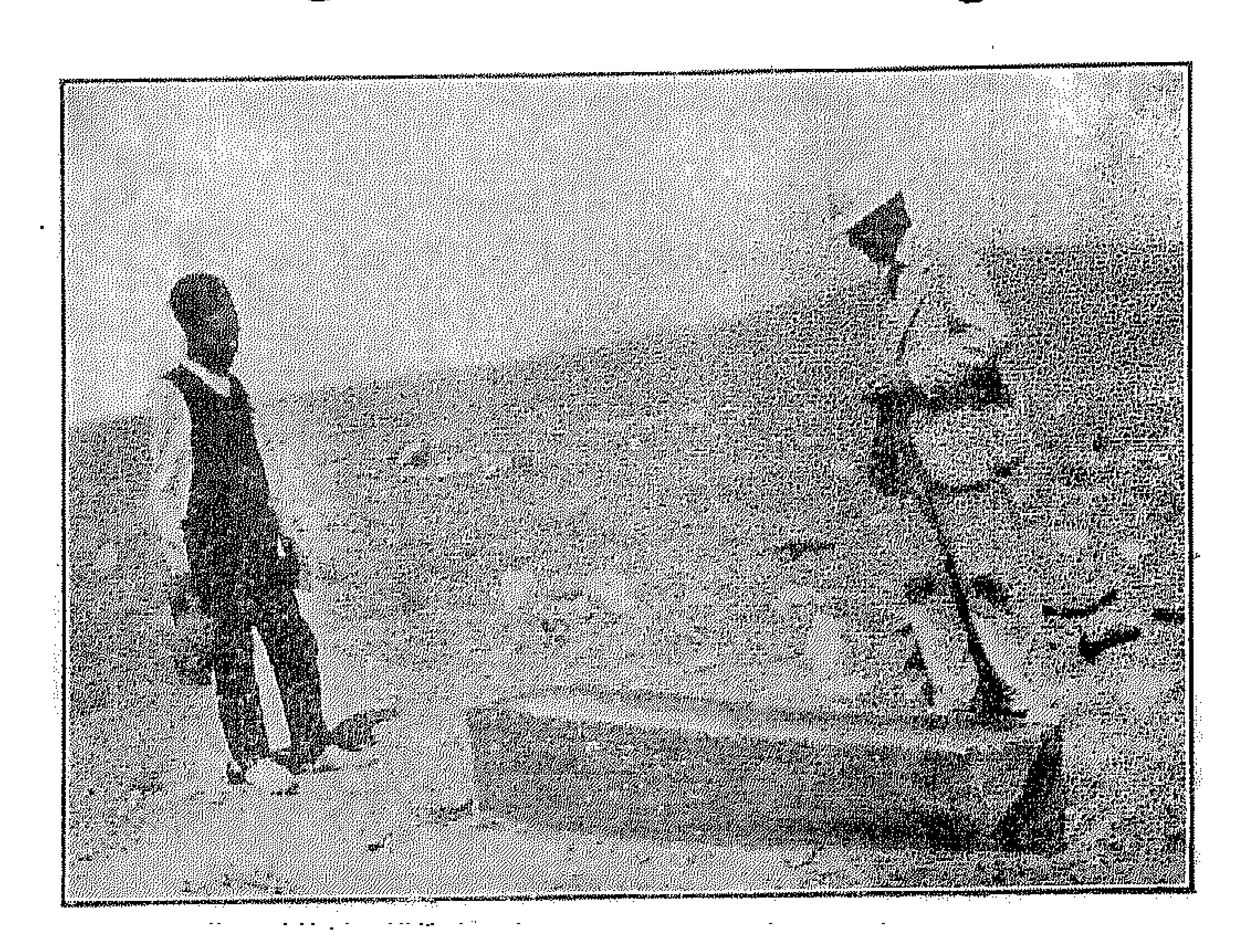
وأما تفصيلات حياته خلال السنوات العشر التي قضاها في الاسفار فتضاربة فيقول عبد الغافر وهو صديق حميم للغزالي انه زار مكة مرة ثانية ثم عاد الى سوريا وأخذ ينتقل من مسجد الى آخر مدة عشر سنوات ويخال لنا ان عبد الغافر هذا روى عن اوثق المصادر عن حياة الغزالي بعد تأليفه «المنقذ من الضلال» وكما قال عنه لا بد ان يكون قد استقاه من معلومات شخصية وهذا بعض ما قال عنه

«زار الغزالي مكة ثم رجع الى سوريا وبقي هناك يجول من مكان الى آخر مدة عشر سنوات وفي خلال هـذه المدة صنف بعض مؤلفاته منها الاحياء والكتب المختصرة منه مثل الاربعين والرسائل وعلاوة على ذلك كان يجاهد لنموه الروحي بواسطة الممارسات الصوفية الدينية . ثم عاد بعد ذلك الى وطنه وقضى هناك زمناً في حياة العزلة منصرفاً الى التأملات ولكنه اصبح رويداً رويداً معلماً ومرشداً في الحياة الروحية . وبفضل مؤثرات وزير سنجار بن ملك شاه ارتضى الغزالي ان يعاود التعليم في المدرسة النظامية الميمونة في نيسابور»

ولدينا اشارة الى زيارة الغزالي لمدينة القاهرة مركز العلوم والفنون الاسلامية في الغرب كما كانت بغداد في الشرق . ومن الغريب اننا لا نجد أية اشارة في كل مصنفاته الى هذه الزيارة ومن المحتمل ان علماء الازهر في ذاك الوقت لم يحسنوا لقاءه مع شهرة صيته في كل العالم الاسلامي ومع وجود تلامذة له في بغداد و نيسابور



جامع طوس الخرب ولعله بني في القرن الرابع للهجرة



قبر الغزالي المزعوم

ممن كانوا أصلاً من مصر وشمال افريقيا (ظناً منهم انه لا علم الا في الازهر ولا عالم الا من الازهر وان كل من تعلم في غير الازهر لا يكون عالماً حقاً) وقد كانت القاهرة في وقت زيارة الغزالي لها مركز المدنية العربية وكانت مزدانة بكل امجاد الدولة الفاطمية ففي وسطها كانت قصور الخلفاء الانيقة بابوابها الثلاثة العظيمة وهي باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة المؤدية الى المدينة والتي تستدعي اعجاب الناظرين الى يومنا هـذا . وفي سنة ١٠٨٨ أعيد بناء اسوار المدينة وهذه الابواب الثلاثة العظيمة وكان في أعلى كل باب من هذه الابواب رواقان يستعملهما سلاطين مصر واشياعهم لرؤية المناظر المختلفة وخصوصاً ذهاب واياب الكسوة الشريفة

واما حياة المدينة العقلية والدينية فكانت محصورة في الجامع الازهر الذي انشئ سنة ١٠١٢ ب . م ولم تكن مدينة القاهرة عاصمة القطر التجارية كما هي اليوم ولكنها كانت قاعدة لمجلس عال ومركزاً للحركات الحربية وللعلوم العربية

وأما الاسكندرية التي عاش فيها الغزالي ردحاً من الزمن قبل رجوعه الى سوريا فلم يكن لها شأن يذكر من الوجهة العلمية ولم

تكن الا ميناء تجارياً يمر منها الناس الى مصر (القاهرة) أو يركبون منها البحر الى سوريا

ولكن لمدينة الاسكندرية شأو رفيع في الأخبار الاسلامية فيقول عنها المسلمون انها مستودع قبر النبي دانيال وقبر الاسكندر الاكبر الذي ذكرت روايته في القرآن . وهي تضم ايضاً رفات وليين من اولياء الله وهما محمد الابوصيري مؤلف القصيدة الشعرية المعروفة باسم «البردة» والمرسي ابو العباس الاندلسي . وهناك ايضاً حديث آخر مغزاه انه بعد سقوط مكة في ايدي الكفار تخلفها الاسكندرية في كراماتها (ولكن لم يقولوا لنا هل يحج الناس اليها عندئذ أم لا)

سافر الغزالي من اسكندرية الى دمشق ثم الى نيسابور ومنها الى بغداد أو ربما من دمشق مباشرة الى بغداد حيث أخذ هناك يعلم علوم كتابه «الاحياء» . ويقول السبكي ان الناس كانوا يلتفون حوله لسماعه وكانوا يكتبون خطبه ثم يقرأونها عليه قبل نشرها

أما عن اختباراته الروحية في رحلاته وفي السنوات التي تلتها فسنتكلم عنها في ما يلي

والذي نعلمه انه بعد ان انتقل من بغداد عاد الى طوس مسقط

رأسه وهناك انصرف الى الدرس والتأمل ومن الغريب انه في هذه الرحلة من حياته شغف شغفاً شديداً بدرس الاحاديث وخصوصاً بمجموعتي البخاري ومسلم وقد اجمع الكتاب على هذا الامر وكان في الوقت نفسه موكلاً الى عهدته مدرسة «اوخانك» وهي أشبه بدير يؤمه المتصوفون وقد قضى كل لحظة من لحظات حياته في الدرس والتنقيب حتى وافته المنية في الخامسة والخمسين من عمره حسب التقويم القمري

ولا شك ان الصعاب والمتاعب التي لاقاها في رحلاته قد انهكت قواه فان شخصاً مثل الغزالي تبوأ مقام الزعامة في الامور الدينية كان عليه ان يبذل جهداً في مجادلة خصمائه ومقاومة حاسديه واحتمال نميمتهم كما يقول عبد الغافر وربما كان هذا الامر كما يزعم مكدونالد سبباً في انتقاله من نيسابور وقد أشار أحد اصدقائه الى المقاومات التي صادفها بقوله :—

« صادف الغزالي كثيراً من المقاومات والهجمات والنمائم ولكنها لم تؤثر عليه ولم يربأ بالرد على مناوئيه . وقد زرته مراراً كثيرة فاذا به قد تغير من حالة الحقد القديمة واحتقاره لجميع الناس واصبح خلواً من هذه الوصمات فخلته في بادىء الامر يتصنع ما ليس فيه ولكني لم ألبث ان ادركت تماماً ان

الرجل قد تغير عن حالته الاولى» . واما انا فأقول لكم . أحبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضيكم وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم» (متى ٥:٤٤) فالغزالي تأثر من موعظة المسيح على الجبل

توفي الغزالي في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادي الثاني سنة ٥٠٥ هجرية (الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١١) وقد ذكر أخوه احمد هذا التفصيل عن وفاته في كتاب (الثبات عند الممات»

غير ان كاتبي سيرته لم يرق في نظرهم هـذا الاقتضاب . ومن أغرب الروايات التي ذكرت عن موت الغزالي ما جاء عن أخيه الاصغر في كتب الصوفيين الفارسية

وانا لمدينون للقس دونالدسن المرسل في بلاد العجم على صور خرائب طوس وقبر الغزالي . وأما المسجد فقديم العهد جداً وربما يرجع تاريخه الى عصر الغزالي ويحتمل ان يكون القبر المبين في الصورة ليس قبر الغزالي الصوفي بل قبر غزالي آخر مشهور لانه جاء في السبكي (المجلد الثالث صفحة ٣٦) انه كان انسان آخر اسمه احمد بن محمد ابو حامد الغزالي الاكبر والاقدم وان الناس كانوا يرتابون في وجوده ولكن بعد البحث والتحري وجد اسمه وارداً في مؤلفات كثيرة منها كتاب الانساب لابن السمعاني ويقول ايضاً

ان هذا الانسان عاش ايضاً في خراسان واشتهر بعلمه ومؤلفاته في الامور الدينية ودفن في طوس حيث كان قبره معروفاً ولهذا السبب اطلق عليه الناس اسم الغزالي الاكبر وكانوا يزورون قبره للتبرك ويطلبون استجابة دعواتهم منه وهو يظن أيضاً ان هذا الغزالي هو إما عم أو جد الغزالي صاحب هذه الترجمة . ومن كلام السبكي هذا نستدل ان اسم «الغزالي» لم يطلق عليه لان أباه كان يغزل الصوف بل هو لقب عائلة قديمة عريقة في هذا اللقب

ومن المعلومات التي رواها القس دونالدسن ما يأتي :

«لا تزال اسوار مدينة طوس القديمة باقية حتى اليوم وطولها نحو فرسخ وهناك بقايا الطوابي وبقايا ابوابها القديمة في تسعة أماكن وكان عرض حائط السور نحو خمس ياردات . ولا يزال قبر الغزالي باقياً حتى اليوم في المقبرة الكبرى الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ومع ان الجزء الاكبر منها قد تحول الآن الى اراض زراعية غير ان الجزء المرتفع فيها باقٍ مقبرة حتى اليوم . ويظهر من صورة قبر الغزالي ان حجراً كبيراً خلع من القبر يبلغ طوله نحو ياردتين وعرضه ثلث ياردة وعلوه ثلث يارده وقد حاول بعضهم ايضاً قطع الجزء المكتوب عليه اسم احمد الغزالي والقطع ظاهرة آثاره في الصورة . اما المسجد القديم فلا تزال اطلاله باقية في الطريق الذي يخترق

المدينة من الجهة الجنوبية . وعلوه نحو ١٨ ياردة وفي داخله مربع علوه خمس ياردات ثم مثمن علوه ٨ ياردات (انظر الرسم)

ويوجد تجاه الباب الجنوبي الغربي قنطرة قديمة لا تزال تستعملها القوافل القادمة من مشهد الى طوس ولهذه القنطرة ثمانية أقواس عرض كل منها اربع ياردات ونصف واسم المجرى القائمة عليه « كشف رود »

واما قلعة المدينة نفسها فمحاطة بخندق وسور داخله فناء واسع ويستطيع المرء الآن ان يسير حول السور ويقترب نحو القلعة من مؤخرتها . ويزرع القوم الآن في فناء القلعة أحسن انواع البطيخ الذي تأكله بلاد فارس . وقد وجدنا داخل السور بين اكوام الطوب بعض اواني الفخار الأثرية الجميلة »

وقد كتب لنا القس دونالدسن رقيماً مؤرخاً في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ من مدينة مشهد جاء فيه : « زرت في هذا الاسبوع مدينة طوس مرة اخرى واخذت ابحث قبر الغزالي وقد تبين لي كما كتبت لكم سابقاً ان الحجر قد انبرى وقطع منه جزء . واستطيع ان اجزم لك الآن بان القبر الذي ارسلت لك رسمه هو قبر ابو حامد بن محمد بن محمد الغزالي لاننا نقرأ في احدى زوايا الحجر التي حاول بعضهم قطعها قديماً هذه الكلمات : «غزالي» و «بوحا» وكل من يبحث هذا الحجر يكاد يقول ان الاسم غير مقروء إلا حرف « الالف » لان الحجر قد انبرى تماماً . والكلمة التي قرأها مرشدي الذي رافقني أولاً «احمد» ليست صريحة ولا يمكننا الجزم بصحتها »

«وقد رأيتم ان كلمة الغزالي المكتوبة على الحجر مكتوبة بالتشديد ولكن العلامة ليست شدة في الحقيقة لانها مرسومة هكذا V بدلاً من(W) »

وهذا البحث يؤيد لنا أمرين أولهما ان ذاك القبر المهمل المقطوع حجره في طوس هو قبر الغزالي الصوفي بعينه وثانياً ان اسمه مشدد غير اننا من قبيل الاحترام لآراء الثقات من المسلمين وما جرى عليه العرف كتبناه في هذه الترجمة « الغزالي » فقط

الفصل الخامس

مؤلفاته

يعرف الشيء الكثير عن الغزالي من مؤلفاته اكثر مما يعرف عنه مما كتبه عنه غيره. فان الحقائق القليلة التي ذكرها المؤرخون عن حياة الغزالي لم تكن مبنية على اساس ثابت بل تنازع فيها الكاتبون والباحثون حتى ان اسمه لم يخل من المنازعة كما مر بنا لاختلاف الرواة في تهجئة الاسم. ولكن الامام نفسه قد ترك بعده خزائن هائلة مملوءة من مؤلفاته الجليلة حتى ان كثيراً منها لم يزل محفوظاً بخط يده الى الآن ولم ينشر بين الجمهور مطلقاً. ولقد ذكر المؤرخون الاسلاميون تسعة وتسعين مؤلفاً للغزالي. وذكر «ردكلمان» في فهرسته عن كتاب تاريخ آداب العربية تسعة وستين مؤلفاً موجودة كلها للآن تشتمل على علم التوحيد والعلوم الاخروية والفلسفة ومحاضرات علماء الصوفية والآداب والتشريع (الفقه) الاسلامي. وقد وضع كثيرون اسم الامام الغزالي فوق هامات كتّاب الاسلام اجمعين كما قال اسماعيل بن محمد الحضرمي

ولدينا آيات بينات تنطق بسموّ مقام الغزالي بين جميع المؤلفين

المسلمين حتى في ايام حياته ، وهذه الآيات نراها واضحة في احدى متروكاته الثمينة المذكورة في الرسم، ويوجد في دار الآثار العربية بالقاهرة مقلمة للغزالي مصنوعة من نحاس وعليها غشاء من فضة اهداها الموسيو كاتيكاس لدار الآثار وعليها نقوش كتابية دالة على انها مقلمة الغزالي التي كان يستعملها في تأليف مؤلفاته في حياته

ومما هو جدير بالذكر ان هذه المقلمة اقدم تحفة من نوعها في دار الآثار كما انها هي الرمز الوحيد الدال على ما كانت عليه كتابات الخطوط المنسوخة في زمن صاحب الترجمة — وقد قيل ايضاً ان هذه المقلمة صنعت وقدمت هدية الى مكتبة الامام الغزالي بعد وفاته الا ان هذا القول مردود وغير معقول لمخالفته للعادة في ذلك العهد ولان كلمة «المرحوم» ليست موجودة في النقش على المقلمة وهذا برهان على ان اهداء المقلمة لمكتبته بعد وفاته لا نصيب له من الصحة بالمرة. فان قال معترض انه ليس من المعقول اهداء مقلمة نحاسية مفضضة الى فيلسوف صوفي عاش عيشة التقشف والورع والزهد قلنا رداً عليه ان هذه المقلمة لم تصنع بناء على طلب الامام الغزالي نفسه بل صنعت بطلب ومعرفة تلاميذه رغبة منهم في ارضائه واكرامه لعنايته بهم فقبل التكريم، الذي لا يأباه الا اللئيم، ولا يدهشنا عدم التملق

في الكتابة المنقوشة على المقامة لان الغزالي نفسه كان يكتب مثلها بلا تملق ولا تجمل كما هو ظاهر في مؤلفات اخرى ظهرت في ذلك العهد

وقد اوردنا جدولاً كاملاً تقريباً في ملحق خاص فيه مؤلفات الامام الغزالي وما ترجم منها الى اللغات الاخرى وخصوصاً الى اللغة العبرانية واللغة اللاتينية واللغة الفرنسية واللغة الالمانية واللغة الانكليزية . وقبل البدء في التكلم عن اهم ما كتبه الغزالي سنذكر في ما يلي خلاصة من جدول مؤلفاته يلذ سماعها وقراءتها وهي

من مؤلفاته كتاب «جواهر القرآن» وهو يحتوي على ملاحظات على بعض آيات من القرآن لها قيمة خاصة واهمية خاصة . وكتاب «العقيدة» وهو عبارة عن نصوص العقيدة الاسلامية وقد نشره بوكوك في مؤلفه "The Specimen" وكتاب «الدرة الفاخرة» وهو يبحث في الدينونة الاخيرة ونهاية العالم ويوم الموقف العظيم وقد ترجمه ونشره المسيو «لام جوينبيه» واما آراؤه الصوفية وكتاباته فيها فقد استدل عليها من العلوم الدينية والادبية كما هو ظاهر من كتابه «احياء علوم الدين» الذي جمع فأوعى . وكتابه «ميزان الاعمال» قد ترجمه الى اللغة العبرانية «ابرهيم بن حسداي البرسلوني» ونشره «جولدنثال». واما كتابه المسمى «كيمياء السعادة» فهو من المؤلفات

المحبوبة التي اساسها الصوفية وكتب اولاً باللغة الفارسية وترجمه H. A. Homes في سنة ١٨٧٣ الى الانكليزية مرتين ثم ترجمه اخيراً المستر «كاودفيلد»

ومن مؤلفاته كتاب «ايها الولد» وهو عبارة عن بحث ادبي فخم وقد ترجم الى اللغة الالمانية ونشره المستر «هامر بور خستال» ومن مؤلفاته عن مبادئ التشريع كتاب «مذهب الشافعية» الذي نال اعلى مكانة في كل العالم الاسلامي

واما كتبه « البسيط » و « الوسيط » و « الوجيز » فما هي الا مختصرات لكتابه الخاص بالفقه على المذهب الشافعي . وله في علم الفلسفة كتاب «تهافت الفلاسفة» وهو طعن في اولئك الذين يتبعون الفلسفة اليونانية وقد نشره المسيو «دي بويز» — واما كتابه «مقاصد الفلاسفة» فهو عبارة عن مقدمة لكتاب تهافت الفلاسفة وقد نشره الموسيو «جيير» ويوجد له ترجمة لاتينية وضعها «جنديسالقي» طبعت في فينيقية سنة ١٥٠٦ — ومن مؤلفاته ايضاً كتاب «المنقذ من الضلال» وقد كتبه الامام الغزالي بعد ابتداء حياته كاستاذ في نيسابور للمرة الثانية وهذا الكتاب عبارة عن شرح فلسفته او «خطته» وقد ترجمه ونشره «شمولدرس» في كتابه المسمى «نبذة عن اصحاب

الفلسفة بين العرب» وقد وضعت له ترجمة ثانية ادخل فيها تحسين عظيم وقد نشرها المسيو «باربيه دي مينار» في الجورنال الاسيوي عن سنة ١٨٧٧ وقد ظهرت حديثاً في عالم المطبوعات الانكليزية في كتاب عنوانه «اعترافات الغزالي» وهو من اقصر ما كتبه الغزالي مبنىً الا انه من اشهر مؤلفاته ويمكن وضعه في صف كتاب «الاعترافات» الذي ألفه القديس «اوغسطينوس» او كتاب «النعمة المحيطة باكبر الخاطئين» الذي ألفه القديس يوحنا بنيان» — وللغزالي عدة مؤلفات بشكل رسائل او نبذ قصيرة. فمن اقصر ما كتبه مؤلفه المسمى «الادب في الدين» وهو بحث قصير عن مبادئ التأديب والتأدب وكان قد وضعه خصيصاً لتلاميذه وهو يبحث عن ماهية النوابغ من التلاميذ والاساتذة وآداب الأكل والشرب والزواج والحياة الدينية. وله مؤلف قصير ذكر قبلاً وهو رسالة «ايها الولد» يبحث في تعريف العقيدة والعمل (الايمان والاعمال) ويبين الفرق بينها. وفي مقدمة هذا الكتاب شطر من الغرابة بمكان يستدل منه على رقة الغزالي وترقيه في قوله او على الاقل يجعل القارئ يتساءل عما اذا كان الغزالي يشير في ذلك الشطر الى احدى رسائل الانجيل

المقدس، واذا كان الامر كذلك فما هي هذه الرسالة يا ترى ؟ [١] قال الغزالي في ذلك الشطر: —

«والايمان قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالاركان، ودليل الاعمال اكثر من ان يحصى وان كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله وكرمه لكن بعد ان يستعد بطاعته وعبادته لان رحمة الله قريبة من المحسنين . ولو قيل ايضاً يبلغ بمجرد الايمان. قلنا نعم ولكن متى يبلغ ؟ وكم من عقبة كؤود ينتقلها الى ان يصل ؟ أول تلك العقبات عقبة الايمان وانه هل يسلم من سلب الايمان ام لا واذا وصل يكون خائباً مفلساً . وقال الحسن البصري يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بينكم» (ايها الولد وجه ٦)

وفي مؤلفه كتاب «كيمياء السعادة» يوجد فصل بديع عنوانه

(١) هي رسالة يعقوب ٢: ١٤ — ٢٦ «ما المنفعة يا اخوتي ان قال احد ان له ايماناً ولكن ليس له أعمال . هل يقدر الايمان ان يخلصه . ان كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومي . فقال لهما أحدكم امضيا بسلام استدفئا واشبعا ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد فما المنفعة . هكذا الايمان أيضاً ان لم يكن له أعمال ميت في ذاته . لكن يقول قائل أنت لك ايمان وأنا لي أعمال . أرني ايمانك بدون أعمالك وأنا أريك باعمالي ايماني . أنت تؤمن ان الله واحد . حسناً تفعل . والشياطين يؤمنون ويقشعرون . ولكن هل تريد ان تعلم أيها الانسان الباطل ان الايمان بدون أعمال ميت . ألم يتبرر ابرهيم ابونا بالاعمال اذ قدم اسحق ابنه على المذبح . فترى ان الايمان عمل مع أعماله وبالاعمال اكمل الايمان . وتم الكتاب القائل فآمن ابرهيم بالله فحسب له براً ودعي خليل الله . ترون اذاً انه بالاعمال يتبرر الانسان لا بالايمان وحده. كذلك راحاب الزانية أيضاً أما تبررت بالاعمال اذ قبلت الرسل واخرجتهم في طريق آخر . لانه كما ان الجسد بدون روح ميت هكذا الايمان ايضاً بدون أعمال ميت»

«معرفة النفس» وجه ه منه فان ما اورده في ذلك الفصل عن النفس الانسانية وما يضعه امامها اعداؤها من السياجات والعراقيل يذكرنا كثيراً بما قاله يوحنا بنيان في كتابه «الحرب المقدسة» — وان اقصر ما كتبه الغزالي على ما اعلم هو مؤلفه «القواعد العشر» وقد طبع مرات عديدة وهو يشتمل على عشر قواعد عن العقيدة والسلوك وهو لا يزيد عن خطاب عادي، ومن امثاله مؤلفه «رسالة الطير» واشهر بحث للغزالي عن السلوك والآداب هو في مؤلفه «نظام الاعمال» ويمكن ان يقارن بسفر اللاويين او بالفصول الاولى من سفر امثال سليمان الحكيم ففي مقدمة ذلك الكتاب يثبت الغزالي بلاهة اولئك الذين يقعدون عن استجلاب السعادة لارواحهم الغير الفانية وهلاك الذين لا يؤمنون بالعالم الآتي فان السبيل الحقيقي للسعادة هو معرفة الحق وفعله — وان النفس هي اداة وقواها العديدة مرتبطة بيعضها لا غنى للواحدة منها عن الاخرى لان طريق الصديق يجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصحيح — ويبحث الغزالي ايضاً عن احتمال تغيير الاخلاق من التقشف في الدين ويذكر الفضائل التي تحصل والرذائل التي تبتذل في هذا الطريق المؤدي الى المولى عز وجل والى السعادة الحقيقية — ولكن يؤكد اهمية الحياة مع قصرها والاهمية

القصوى للخلود. ولو ان التعليم العقلي الذي يحتوي عليه مؤلفه هذا هو تعليم نبيل جداً الا انه مع كل هذا مبني بتمامه (بكل اسف) على مبدإ الخلاص بواسطة الاعمال، وليس هناك ثمت احتمال انقلاب في الاخلاق بواسطة تغيير يحدث في القلوب[1] ولا دليل على الوصول الى الحياة المطلوبة بواسطة التغلب على التجربة بقوة لا يمتلكها احد من جميع بني الانسان في كافة الاماكن والازمان

ومؤلفه الذي طبقت شهرته الخافقين هو ذلك الكتاب الباهر «احياء علوم الدين» فانه دائرة معارف حقيقية في علوم وآداب الاسلام ويبحث بحثاً وافياً في جميع الآراء الاسلامية وقد طبع هذا الكتاب مرات كثيرة وكتبت له تفاسير اشهرها ما وضعه «محمد . . . مرتضى» في عشرة اجزاء كبيرة — اما المؤلف نفسه فهو يحتوي على اربع اجزاء كل جزء منها عشرة كتب في مجموعها عبارة عن ألف صفحة مطبوعة طبعاً متقناً — ومع ان كثيرين يقرأون المؤلف الاصلي «كتاب الاحياء» كما كتبه الغزالي الا ان الحال قد استدعى وجود عدة مختصرات لهذا الكتاب. واحد تلك المختصرات هو كتاب «موعظة

(١) أما الديانة المسيحية فهي مبنية على تغيير القلب وتسليمها الى الله وتنقيتها (راجع أمثال ٢٣:٢٦ ويوئيل ٢:١٢ و١٣ ومتى ٥:٨ و١٢:٣٥ و١٥:١٨ ومر ١٢:٣٣ ورومية ٢:٢٩ و١٠:٨ — ١٠ وأف ٦:٦ وعب ٤:١٢ و١بط ٣:٤ ومزمور ٦٢:٨ الخ

المؤمنين» الذي وضعه محمد جمال الدين الدمشقي وهو يدرس بصفة كونه كتاباً علمياً اسلامياً في صف اللاهوت بالمرسلية الاميركانية بالازبكية بالقاهرة. واول جزء من كتاب الاحياء الذي هو المؤلف الاصلي عنوانه (ربع العبادات) والجزء الثاني عنوانه (ربع العادات) والجزء الثالث عنوانه (ربع المهلكات) والجزء الرابع عنوانه (ربع المنجيات) وكل جزء من هذه الاجزاء يحتوي على عشرة كتب وها هي محتوياتها مرتبة في الجدول الآتي حسب ترتيبها في ذات كتاب احياء علوم الدين :—

﴿ محتويات الجزء الاول ﴾	﴿ محتويات الجزء الثاني ﴾
(١) كتاب العلم وفيه سبعة ابواب	(١) كتاب آداب الأكل وفيه اربعة ابواب
(٢) كتاب قواعد العقائد وفيه اربعة فصول	(٢) كتاب آداب النكاح وفيه ثلاثة ابواب
(٣) كتاب اسرار الطهارة وفيه ثلاثة أقسام	(٣) كتاب آداب الكسب والمعاش وفيه خمسة أبواب
(٤) كتاب اسرار الصلاة وفيه سبعة ابواب	(٤) كتاب الحلال والحرام وفيه سبعة أبواب

(٥) كتاب اسرار الزكاة وفيه اربعة فصول
(٦) كتاب اسرار الصوم وفيه ثلاثة فصول
(٧) كتاب اسرار الحج وفيه ثلاثة ابواب
(٨) كتاب آداب تلاوة القرآن وفيه اربعة ابواب
(٩) كتاب الاذكار والدعوات وفيه خمسة ابواب
(١٠) كتاب ترتيب الاوراد وفيه بابان

(٥) كتاب آداب الالفة والاخوة الخ وفيه ثلاثة ابواب
(٦) كتاب آداب العزلة وفيه بابان
(٧) كتاب آداب السفر وفيه بابان
(٨) كتاب آداب السماع والوجد وفيه بابان
(٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه اربعة ابواب
(١٠) كتاب آداب المعيشة واخلاق النبوة وفيه ١٣ بياناً

﴿ محتويات الجزء الثالث ﴾

(١) كتاب شرح عجائب الخلق وفيه ١٤ بياناً
(٢) كتاب رياضة النفس وفيه ١١ باباً
(٣) كتاب كسر الشهوتين وفيه ٧ بيانات
(٤) كتاب آفات اللسان وفيه بيانان و ١٤ آفة

﴿ محتويات الجزء الرابع ﴾

(١) كتاب التوبة وفيه اربعة اركان و١٠ بيانات
(٢) كتاب الصبر والشكر وفيه شطران و ٣ اركان و ١٧ بياناً
(٣) كتاب الخوف والرجاء وفيه شطران و١٢ بياناً
(٤) كتاب الفقر والزهد وفيه شطران و١٤ بياناً

(٥) كتاب ذم الغضب وفيه ١٦ بياناً وقولاً

(٦) كتاب ذم الدنيا وفيه خمسة بيانات

(٧) كتاب ذم البخل وفيه ١٢ بياناً وفيه حكايات البخلاء

(٨) كتاب ذم الجاه والرياء وفيه شطران و٢٣ بياناً

(٩) كتاب ذم الكبر والعجب وفيه شطران و١٥ بياناً

(١٠) كتاب ذم الغرور وفيه بيانان واربعة اصناف

(٥) كتاب التوحيد والتوكل وفيه شطران و١١ بياناً

(٦) كتاب المحبة والشوق والرضا وفيه قولان و١٧ بياناً وخاتمة

(٧) كتاب النية والاخلاص والصدق وفيه ثلاثة ابواب

(٨) كتاب المراقبة والمحاسبة وفيه ٦ مرابطات

(٩) كتاب التفكر وفيه فضيلة وثلاثة بيانات

(١٠) كتاب ذكر الموت وما بعده وفيه شطران وثمانية ابواب الخ.

ومما يدلنا على ان الغزالي كان صوفياً مخلصاً في صوفيته ما ذكره بنوع خاص في الجزئين الثالث والرابع من هذا المؤلف العظيم (احياء علوم الدين) وأن كتبه العشرة عن «الاشياء التي تهذب النفس» مملوءة بما يمكن الانسان من الحصول على مجموعة يومية كمرآة لافكاره الادبية . وهذه الدرر المنظومة الموجودة في مؤلفات الغزالي يجب

ان يقدرها المسلمون والمسيحيون معاً حق قدرها لان ظاهرها علمي ادبي وباطنها يوصلنا الى حق المسيح

«يجب ان يقدرها المسلمون حق قدرها لانه منهم وامامهم وشهاداته لهم أو عليهم لا غرض له فيها ، ويجب ان يقدرها المسيحيون حق قدرها لانه هو المسلم الوحيد الذي اكتسب عقله نوراً وهدى باطلاعه على الكتاب المقدس حتى صار قريباً جداً من روحانية الانجيل اكثر من كل المؤلفين المسلمين واقتبس من التوراة والانجيل كثيراً حتى ليمكننا ان نقول ان اشعياء النبي في وسط اسرائيل بنبواته الصريحة دعي «النبي الاسرائيلي الانجيلي» والامام الغزالي في وسط الاسلام وفي العصور الوسطى عصور الظلام باطلاعه على الكتاب المقدس واقتباساته منه بدون ان يشعر يدعى في نظرنا «الامام المسلم الانجيلي»

ومن ألذ مؤلفاته «المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى» فانه قسمه الى ثلاثة اقسام . (الاول) بحث فيه بحثاً فلسفياً عن معنى كلمة «اسم» وميز بين التسمية والمسمى وأبان كيف يمكن ان يكون لله عز وجل اسماء كثيرة كلها ذات مغزى واحد. (والثاني) منه (وهو اطول الكل) بحث في التسعة والتسعين اسماً للذات العلية على الترتيب وبناها في بحثه على سبعة مقاصد ومغزى واحد . (والثالث) قصير وقد افهمنا فيه انه يوجد اكثر من تسعة وتسعين اسماً الا ان

هذه التسعة والتسعين بنيت على اسباب معقولة . وايضاً في آخر الكتاب فصل بحث فيه عن امكانية وعدم امكانية وصف ذي الجلال والاكرام . وقد علم الامام الغزالي في كتابه هذا ان الخضوع لارادة المولى عز وجل انما هو اقصى سعادة للمؤمن — وفيه انه توجد ثلاث درجات في معرفة كنه الخالق . وقصد بذكر هذه الدرجات اننا كلما اقتربنا الى الله ارتفعت أخلاقنا . والدرجات الثلاث المذكورة هي هذه (١) العقلية (٢) الاعجاب والاجتهاد في السنن (٣) الحصول على بعض مزايا الخالق عز وجل كالملائكة مثلاً . وعلم ان التقرب من الخالق هو بالمرتبة والدرجة وليس بالمكان. وليت الغزالي تقدم اكثر فعلم كما علم من التوراة والانجيل انه لا يمكن ان يحصل المؤمن على مزايا الخالق كالملائكة واشباههم الا بواسطة الغفران المجاني المعلن من السماء في شخص الطاهر القدوس البريء البار سيدنا عيسى (يسوع) المسيح الذي تنازل كرماً منه واختياراً وتجسد وفدى جميع البشر بدون استثناء وفتح الباب ؛ لكل من يريد الاقتراب ، من اولي الالباب ، الى نعمة رب الارباب

قال الامام الغزالي ان هنالك قولين حقيقين بالاحترام والاجلال بشأن الخالق والمؤمن معاً . فان المؤمن يجب ان يقول عن الله دائماً

«لا اعرف الا الله ولا اعرف شيئاً عن الله» وهذا القرار الذي قرره الغزالي انما هو نتيجة الوجد الذي استولى على قلبه حينما قرأ في الانجيل «طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله — ابي هو الذي يمجدني . . . ولستم تعرفونه . واما أنا فاعرفه» (متى ٥:٨ويوحنا ٨:٥٤و٥٥) وحينما ترنم بقول سيدنا داود في صلاته الى الله «عجيبة هذه المعرفة . فوقي ارتفعت لا استطيعها . اين اذهب من روحك ومن وجهك اين أهرب ؟ ان صعدت الى السموات فانت هناك . . . ان اخذت جناحي الصبح وسكنت في اقاصي البحر فهناك ايضاً تهديني يدك وتمسكني يمينك» (مزمور ١٣٩:٦ — ١٠) ولا ريب في ان استفادة الغزالي من روحانية الكتاب المقدس أهلته الى الافتكار في نفسه انه من الواصلين الذين حازوا مقاماً محموداً وفنوا في الله ولم يعرفوا الا هو . واما المعرفة عنه (عن الله) كما هو سبيل اهل الظاهر فلا يقول به الغزالي قط . وبهذه الدرجات التي نالها ادخل على الصوفية ما أدخل من الاصلاح العجيب الذي لا نرى له اساساً الا في المسيحية التي نهت عن محبة العالم وعلمت عن الغناء في الله

ان آخر ما كتبه الغزالي من مؤلفاته هو كتاب «منهج العابدين» وقد كتبه لارشاد اولئك الذين لم يفهموا نصوص كتاب احياء علوم

الدين وقد بحث فيه عن العقيدة الاسلامية من الوجهة الصوفية وقد أوردنا في المؤلف الانكليزي صورة من أول صفحة من هذا الكتاب اخذناها عن مجلد ظهر حديثاً في مصر وعلى هامشه كتاب «منهج العابدين» الذي ذكر قبلاً — وهذان المؤلفان اللذان ألفهما الغزالي محبوبان جداً وقد انتشر انتشاراً سريعاً في هذه الايام اما كتاب المنهج فيعلن ان الامام الغزالي استعمل في أواخر ايامه الفاظ الصوفيين في أقواله وكتاباته حتى في تعاليمه ولذلك رأيناه سمى فصول هـذا الكتاب «مراتب» في تقدم النفس . فالمرتبة الاولى هي (مرتبة المعرفة والثانية «مرتبة التبكيت» والثالثة «مرتبة بيان الموانع نحو المولى الخ» والمراتب الاخيرة في الكتاب في طريق الصوفي هي تسبيح الله وشكره في جميع الاحوال الخ

واما تعليمه عن الصلاة كما ورد في كتابه احياء علوم الدين فهو بلا نزاع امتن وأهم وأقوى ما رآه الباحثون (في علم الفروض) الذين وضعوا كل اهتمامهم في تأدية الصلاة وفروضها في أوقاتها الخاصة بكل دقة (راجع كتاب احيـاء علوم الدين جزء أول وجه ١١٧ تحت عنوان حياة الصلاة)

ان اخلاص الغزالي ونشاطه العقلي والبدهي كما ظهر من مؤلفاته

ومما أوردناه من المقتطفات التي مر ذكرها يؤكد ويبين الاسباب التي جعلت للغزالي تأثيراً عميقاً يفوق جداً تأثيرات الفلاسفة الذين يبحثون في الامور العقلية الخالصة . فبينما نحن لا نرى أثراً لتعضيد الغزالي للفلسفة التعليمية نراه يشجع الفلسفة العقلية ويذكر القراء كيف كان يحمل معه مبادئ الآداب في روحاته وغدواته حتى انه بعد وفاته ألفت كتب كثيرة اخذت عما وضعه الغزالي ولذلك قال «كلو رفيلد» ان أهم هذه المؤلفات المأخوذة عن الغزالي كتاب «اخلاق الجلالي» الذي ألفه الامام جلال الدين أسعد الدواني ونقله الى الانكليزية نقلاً متقناً المسيو و . ف طومسون ، وان معظم كتاب الدواني هذا ترجم من العربية الى الفارسية وظهر أصله في القرن العاشر تحت عنوان «كتاب الطهارات» وبعد ذلك ترجمه الى الفارسية أبو النصر وسماه «أخلاق نصيري» وهذبه ببعض اضافات هامة من كتاب آخر ، ثم في القرن الخامس عشر أدخلت عليه تحسينات أخرى ظهر بها تحت عنوانه الحالي «أخلاق الجلالي»

ويظهر بوضوح مَن كل مؤلفات الغزالي انه كان بحاثة كبيراً في شؤون الطبيعة بدليل كونه ألف كتاباً خاصاً في هذا الموضوع أسماه «الحكمة في مخلوقات الله» وضع فيه الشيء الكثير عن عظمة

السموات التي تتلألأ فيها النجوم ، وعن الارض والبحر والعناصر الاربعة الاولية ، وعن حكمة خلق الانسان والغرائب الجسمية الكائنة في النوع الانساني ، وعن الطيور ، وعن الدبابات والاسماك ، وبالجملة فان محتويات هذا الكتاب مبنية على مقدمات ونتائج تخلص منها الى ذكر عزة الله وعظمته كما تجلت هذه الغاية في مؤلفات الغزالي ويظهر ان ما يقوله الغزالي عن الفوائد التي تجنى من مجرد النظر الى القبة الزرقاء يمكن ان يقارن بقول داود النبي :

« ايها الرب سيدنا ما امجد اسمك في كل الارض حيث جعلت جلالك فوق السموات . من أفواه الاطفال والرضع أسست حمداً بسبب اضدادك لتسكيت عدو ومنتقم . اذ ارى سمواتك عمل اصابعك القمر والنجوم التي كونتها فمن هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . . . ايها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الارض . . . السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه يوم الى يوم يذيع كلاماً وليل الى ليل يبدي علماً . . . جعل للشمس مسكناً فيها . وهي مثل العروس الخارج من حجلته . يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق من أقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها ولا شيء يختفي عن حرها . الخ » (مزمور ٨ و١٩)

ولذلك قال الغزالي تفسيراً لقوله « والسماء ذات الحبك » :—

(السماء ذات الحبك) « قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة فهي دلائل

واضحة تدل على فاعلها ؛ وصنعة محكمة صمدية تدل على سعة علم باريها ؛ وامور ترتيبها كلٌّ يدل على ارادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد . وقيل في النظر الى السماء عشر فوائد . تنقص الهم ؛ وتقلل الوسواس ؛ وتزيل وهم الخوف ؛ وتذكر بالله ؛ وتنشر في القلب التعظيم لله ؛ وتزيل الفكر الردية ؛ وتنفع من مرض السوداء ؛ وتسلي المشتاق ؛ وتؤنس المحبين ؛ وهي قبلة دعاء الداعين » الحكمة في مخلوقات الله وجه ٤)

ولقد كان الغزالي لاهوتياً مفلقاً وناقداً نحريراً وقد وضع شرحاً للقرآن في ٤٠ مجلداً لم تظهر في عالم المطبوعات ، وقد كتب ١٢ كتاباً ضد افراد معينين من طائفة الملحدين

ومن بين مؤلفاته التي كان يهجو بها الفلاسفة نرى انه لا مندوحة لنا عن ذكر ثلاثة منها مرتبطة ببعضها كل الارتباط وهي « كتاب مقاصد الفلاسفة» وهذا الكتاب عبارة عن بيان لتعاليم الفلاسفة الحقيقية وايضاح لآرائهم عن العالم . ثم « كتاب تهافت الفلاسفة» وهو عبارة عن استنكار لآرائهم أعلن فيه عن تلك الافكار التي تتفق مع من يتتبع الاسلام بقلبه وعقله . ثم «كتاب القواعد» وهو عبارة عن بيان للحقائق التي يجب ان تبنى لكي تحل محل غلطات الفلاسفة — في الكتاب الاول كما قال ماكدونالد «يضرب الغزالي

الفلاسفة على ظهورهم وعلى افخاذهم ويجعل أسلحتهم ضدهم ويتطرف في سوء مصير كل ما هو عقلي» وقبل «هيوم» بنحو سبعمائة سنة نراه يقطع صلة المسببات بقوة عارضته وينشر على الملإ بانه ليس في وسعنا ان نعلم شيئاً عن المسببات أو النتائج ولكننا نرى أشياء تتبع احداها الاخرى فقط

ان المؤلف العظيم « كتاب احياء علوم الدين» الذي ألفه الغزالي كان من أقوى أسباب اظهار نقائص مخجلة في الاندلس . فانه لم يعد تحمل أولئك العلماء في تلك الاصقاع في الطاقة نظراً لضيق أفكارهم ونظراً لكون الفقه كان في نظرهم قاصراً على معرفة قواعد الدين معرفة تامة فقط .ولم يكن لديهم من الوسائل ما يحملهم على الاعتراف بتلك المبادئ الروحية التي كان يحبذها الغزالي وهي مبادئ تمس شعور الشخص الداخلي وبالاختصار فان مبادئ الغزالي كانت مبادئ قلوب لا شخصيات ومع انها لم تصل الى المبادئ المسيحية الا انها كانت كظل خفيف لها لتشبعه بآراء الكتاب المقدس كما مر بنا . ولما اشتدت جراءة الغزالي وهجا معاصريه من علماء الفقه الذين صرفوا هممهم الى ظاهر الشرع أصاب منهم ملمساً حساساً فلم يتأففوا فقط بل انتقلوا من التأفف الى الصخب والصراخ بأصوات عالية

هي أصوات الخزي والعار والحنق ولذا قال «دوزي» «ان ابن حمدون قاضي قرطبة أعلن ان أي رجل مسلم يقرأ مؤلفات الغزالي فهو كافر مستحق للعنة الله» وأصدر فتوى مؤداها ضرورة حرق جميع نسخ الكتاب وهذه الفتوى كانت مذيلة بامضاءات فقهاء قرطبة وقد صودق عليها رسمياً فلذا حرقوا كتاب الغزالي في قرطبة وفي جميع مدن الامبراطورية الاسلامية في الاندلس وصدر أمر بان كل من وجدت عنده نسخة منه كانت عقوبته الاعدام ومصادرة الاملاك — الا ان هذه الاحكام لم تكن شائعة الا في بلاد الاندلس فقط وأما بقية البقاع الاسلامية فلم تتأثر بهذه الاحكام الجائرة الفظيعة . ففي حياته وبعد مماته كانت تقرأ مؤلفاته بمعرفة طائفة كبيرة من القراء والشراح ونعني بها الكتب التي ألفها ضد الفلسفة لاجل بيان حقيقة الاسلام . ولكن المؤلفين المسلمين ونقاد الافرنج أجمعوا على اتهام الغزالي بالاهمال وعدم التدقيق في نقل المقتطفات والمقتبسات من الكتب الاخرى اثناء تعاليمه وتأليفه . ومما وجهوه اليه من انواع التهم انه أخذ الاحاديث بمعانيها دون نصوصها نخالف التقاليد الاسلامية المرعية . وقد قال في ذلك ما كدونالد «ان الغزالي كان يورد من ذاكرته شيئاً كثيراً زائداً عن المقدار الواجب لانه كان

رجلاً عالي الهمة واسع الاطلاع لا يعبأ بضرورة التدقيق في ما ينقله عن غيره اقتباساً أو اقتطافاً» . ومثل هذه المقتطفات استمرت في كتبه بالمعنى لا بالنص وعلى غير هدى الى آخر أيام حياته . ولقد أورد السبكي المتوفي سنة ٧٧١ بعد الهجرة في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»فصلاً خاصاً مشتملاً على صفحات كثيرة أورد فيها بالاحصاء الدقيق ما يزيد على ٦٠٠ حديث وضع لكل منها اشارة الى المحل الذي ورد فيه — ولا يوجد لدينا الآن ما يحملنا على الشك بان السبكي هذا كان من المعجبين بالغزالي ومن المحبذين لآرائه وتعاليمه . ومع كل هذا فماذا يكون قولنا عندما نرى في مجموعة تاريخ الشهداء هذه هجواً شديداً وحكماً قاسياً على الغزالي لعدم تدقيقه سيما وان هذا الهجو وهذا الحكم صادران من أحد تلاميذه المعجبين به ؟ وعندما يقرأ الانسان هذه المجموعة الجامعة «لحقائق القول» في الحديث المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم والمبينة على ان هذه الاحاديث كلها نسبت اليه صلى الله عليه وسلم على غير أساس يتمعض وينفر من جراء هذه الحقيقة المؤلمة ومن النقص الشائن الذي يحول دون الوصول الى حقيقة أهمية هذا الكتاب الاسلامي العظيم — فاذا كان الغزالي نفسه قد تناول الاحاديث النبوية باهمال هذا مقداره ،

واذا كان قد نسب الى النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً كثيراً من الـكلام التافه الـكاذب الذي اكثره غير لائق لان ينسب الى مقام النبوة من وجهة أدبية فكم يا ترى يكون مقدار ثقتنا في ناقلي مثل تلك الاحاديث غير الغزالي ؟ وكيف يمكن ان نعفي الغزالي نفسه من تهمة الفضيلة الـكاذبة ما دام الحال على هـذا المنوال ؟ ولنتقدم الآن الى حقيقة أخرى من الاهمية بمكان عظيم من جهة مؤلفاته وبشأنها فنقول:—

كان للغزالي تأثير قوي على الافـكار الاسرائيلية في العصور الوسطى وقد ادرجنا في الملحق بياناً عما ترجم من مؤلفاته الى اللغة العبرانية — وكثيرون من رجال الفلسفة مثل «ميمو نيدس» اقتطفوا نظرياتهم من كتاب مقاصد الفلاسفة ومن كتب أخرى للغزالي . وقد نحا «جودا هاليفي» نحو الغزالي في هجو الفلسفة في كتابه «الكوزاري» الا ان الغزالي كان يجذب الافـكار اليهودية بمبادئه الادبية اكثر من فلسفته . وقال «برويد» ان الغزالي تعمق في آداب اليهودية الى درجة زعم معها الغير انه كان يتخبط في ذلك البحث وقد تعلم كتبه وعلم بها كثيرون من علماء اليهود (لعلمهم انه استفاد من أسفار التوراة كثيراً اثناء دراسته لها) وقد أخذ ابرهيم بن عزرا عن

كتاب الغزالي المسمى «ميزان الاعمال» مقارنته هـذه في نصيحته البديعة التي أسماها «يا شين لب» وقد أخذ ابرهيم بن داود عن الغزالي من نفس الكتاب تلك المقارنة التي اثبت بها الغزالي الفرق في المقدار بين فروع العلوم المختلفة . وقد أورد «سيمون دوران» في كتابه المسمى «كيشت» شطراً من كتابه «موزين هاثيوثيم» أسماه «موزين هاهكما»

وقد ترجمت مؤلفاته الى العبرانية في القرن الثالث عشر وليس في عالم الوجود أقل من ١١ شرحاً عبرانياً لكتاب المقاصد

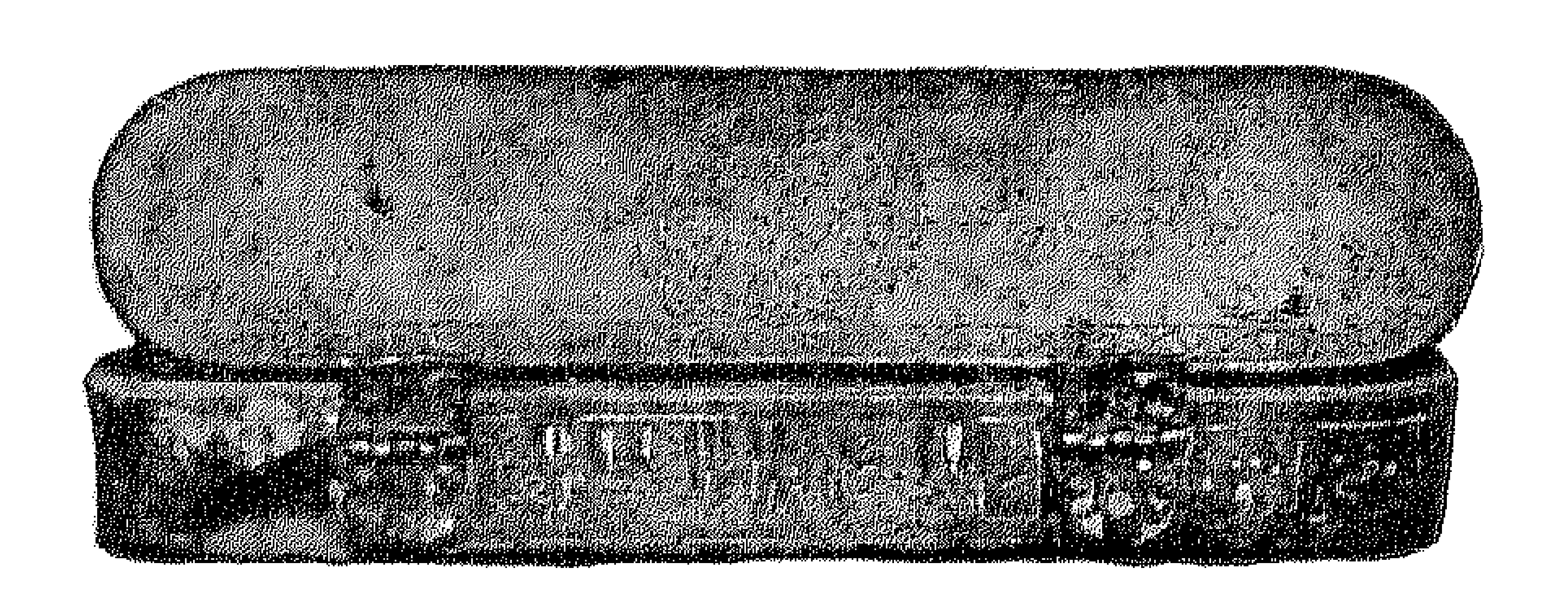
وكان الغزالي في آرائه عن العلوم كمعاصريه وكان العلم في نظره مؤسساً على الطريقة البطليموسية القائلة بوجود أربعة عناصر فقط وبوجود ثلاث طرق (١) عالم الشعور (٢) وعالم الاله الابدي أي الوحي (٣) وعالم التصورات أو قوة الله — وأما في رؤانا وأحلامنا فنحن في اتصال مع عالمين آخرين . ويتجنب الغزالي بهذه الطريقة كل ما يصادفه من الصعوبات الكامنة بين طيات التعاليم الاسلامية الخشنة — فقد توجد أشياء حقيقية وفعلية ومع هذا فلا توجد في عالم الشعور . ويلخص الدكتور ماكدونالد قوة تأثير الغزالي على العالم الاسلامي من أربعة أوجه . فهذا الامام العظيم :—

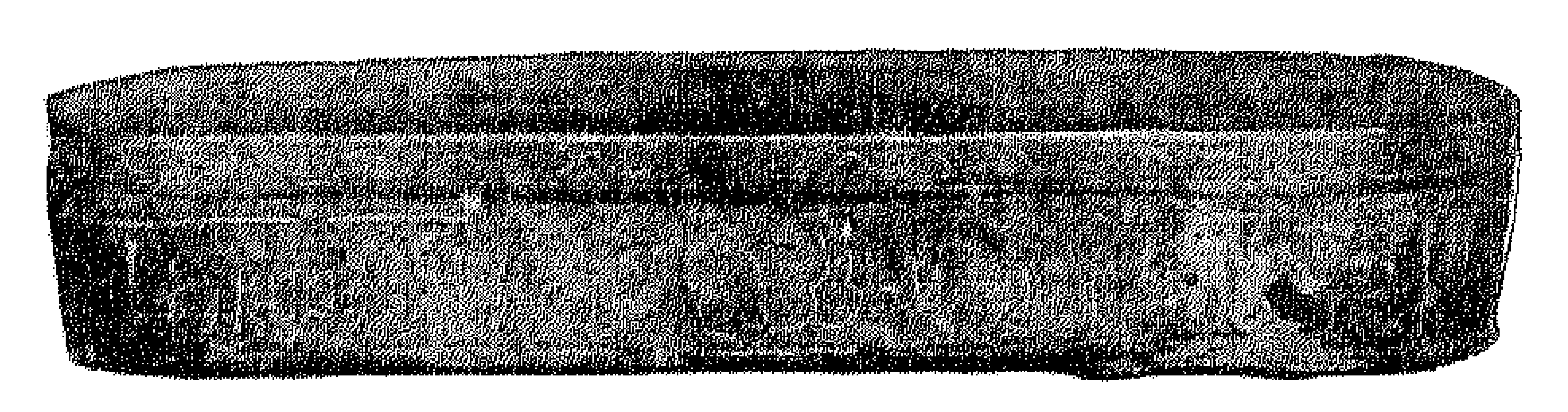
(أولاً) قد كان زعيماً عاملاً على ارجاع المسلمين عن التعاليم المجردة التي لا مغزى ولا معنى لها الى اتصال قوي مع الكتاب والسنة لانهما في نظره ينبوع الاسلام الوحيد . ويمكن بل يجوز لنا ان نسميه فقيهاً في القرآن كما نفهم من هذه التسمية في عصرنا الحالي لان تفسيره للكتاب ليس ايراداً لما أورده الغابرون من التفاسير ولكنه تفسير روحي لنصوص القرآن صادر من فيوضات آرائه الخاصة

(ثانياً) أدخل الغزالي في العالم الاسلامي عنصر الخوف من جديد لانه في الايام السابقة كانت مخاوف يوم الدينونة وأهوال الجحيم — كما في نصوص القرآن — عبارة عن زاجر قوي يزجر القوم ويردعهم ويوقظهم ويدعوهم للرجوع الى التوبة ولكن ميل الخلفاء والرؤساء والعلماء الى ما يلذذ أجسادهم جعل القوم يجرأون على اهمال هذه التعاليم وعلى التهاون بها فجاء الغزالي وأعاد الى هذه التعاليم قوتها الاولى ورونقها وعزها وأطنب فيها حتى جعل الفرائص ترتعد من كل ما ذكر فيها من المخاوف والاهوال وقد استدللنا على هذه الحقيقة مما كتبه الامام الغزالي في كتابه « الدرة الفاخرة » الذي له المقام الاسمى في قلوب المتدينين المسلمين الى الآن (ونحن نرى انه اقتبس مواده من سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي تقريباً)

(ثالثاً) كانت الصوفية موجودة في الاسلام قبل الغزالي الا انها كان يُنظَرُ اليهـا كأنها شيءٌ مخالف للشرع مزْرٍ بعقام من يتبعه ولكن الغزالي لما ظهر في ميدان الحياة عزز الصوفية في تعاليمه أيما تعزيز وطبقها على الشرع وطبق الشرع عليها وزاد في تكريمها حتى صارت الصوفية ذات المكانة العليا بين عموم السنيين المسلمين بل بين جميع الفرق الاسلامية منذ ذلك الحين

(رابعاً واخيراً) ان هـذا الامام حلل الفلسفة حتى جعلها قريبة من العقول العادية ثم بيّن خطرها ومبادئها الاساسية ثم أظهر في كتابه — بشكل جلي — انه لا فرق بين الفلسفة الحقة ومبادئ الاسلام فأشبه في عمله «ريمو ندلل» المسيحي المبشر الاول للمسلمين ويرى البحاثة ماكدونالد أن الفقرة الاولى والفقرة الثالثة من هـذه الفقرات الاربع هما المسئلتان الهامتان اللتان وضعتا الامام الغزالي في الصف الاوّل من صفوف العلماء الاعلام ، في كل أيام حياة الاسلام، من أيام الخلفاء الراشدين الى يوم الزحام





مقلمة للغزالي محفوظة بدار التحف العربية بالقاهرة

الفصل السادس

علم الآداب كما علمهُ الغزالي

لا يخفى على كل من له المام نوعيّ بالفلسفة الادبية ان الآداب الحقة مبنية على ثلاثة عوامل جوهرية. وهذه العوامل هي التي بنيت عليها الآداب المسيحية كما ترون في الفقرات الآتية وهي :—

«الخير الاعظم» الخير الاعظم هو العامل الاول من عوامل الآداب المسيحية وهو الضالة المنشودة التي يفتش عليها المؤمنون المتدينون بالمسيحية والمتأدبون بآدابها وينظرون الى خير المسيح الاعظم وينشدونه لينير لهم ظلمات هذه الحياة لانه هو القائل : «انا هو نور العالم . من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»

«الفضيلة السامية» هي العامل الثاني الذي يدفع التابعين المؤمنين الى التخلق باخلاق المتبوع الاعلى حتى يصيروا اهلاً لان يخلع الفادي عليهم خلعة الفضيلة السنية فتراهم بهذا الثوب الملكي الجميل عاملين ومترنمين بقوله تعالى : «وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا» (لو ٦:٣١) ومتى تمثل المؤمن بالفادي فهذه هي الفضيلة القويمة ، وهذه هي الاخلاق الكريمة

﴿القياس﴾ القياس الذي هو الشريعة الادبية هو العامل الثالث من عوامل الآداب المطلوبة . والقياس هو ان يقيس التابع آدابه الشخصية بمقدار مقياس الوحي الذي يعتقد به وبمقياس آداب متبوعه الديني فاذا رأى التابع ان آدابه ناقصة وقصيرة يطلب المزيد حتى يقترب ان لم يقدر على الوصول . ولاجل احقاق هذه الحقيقة قال الرسول . «ولكن نحن لا نفتخر الى ما لا يقاس بل حسب قياس القانون الذي قسمه الله لنا قياساً . . . اذ قد وصلنا . . . غير مفتخرين الى ما لا يقاس في اتعاب آخرين — ولكن لكل واحد منا أعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح . . . الى ان ننتهي جميعنا الى قياس قامة ملء المسيح . . . الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل حسب عمل على قياس كل جزء يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة» (٢ كو ١٠:١٣—١٥ وأف ٤:٧—١٦) وهذه العوامل الثلاثة لم تتجل كاملة الا في الديانة المسيحية (كما عرف ذلك الامام الغزالي يقيناً)

واما في الديانة الاسلامية فان هذه العوامل قد قيدت بقيدين حديديين قبل ان تصل الى عشر المطلوب منها . فاما القيد الاول فهو أخلاق النبي محمد نفسه ونزعاته الشخصية المشهورة التي لا مناسبة لذكرها في هذا المقام . واما الثاني فهو تأثير احاديثه المروية عنه وعلى

هذا فصار اعلى سما كي الفضيلة في الآداب الاسلامية سهل التناول بل يمكن الوصول اليه بكل سهولة بواسطة الاقتداء باعمال النبي محمد التي هي في غاية الموافقة للطبيعة الجسدية ، وايضاً صار القياس الذي هو الشريعة الادبية مشوهاً نظراً لآراء النبي محمد الغير المترابطة كما في احاديثه بالنسبة لاختلاف مقاصدها وما ترمي اليه حتى قال مارتن سان :

« ان الآداب الاسلامية عليها مسحة التعليم الجاف الظاهر المنافي لجوهر الفضيلة ، فان الضمير الحي في العلاقات الاجتماعية ، والعمل على حسب ما يعتقده الانسان ، وعلى ما يقوله الانسان ، وعلى موافقة اعمال الانسان لارادة الله ، كل هذه الامور هي المسألة الهامة إلا ان هناك نقصاً في التعمق في جعل الآداب أساساً للمحبة في تعاليم الاسلام عن الآداب وهذا مما يؤسف له » وقد قال سيدنا المسيح : «يكفي التلميذ فخراً أن يكون كمعلمه»

ان الخير الاعظم الذي هو العامل الاول هو المظهر الخارجي الظاهر الملموس الذي ينبئ عن سعادة الانسان وهذا القول لايحتاج الى براهين جديدة عند الذين استوعبوا فلسفة الاسلام وعرفوه من منابعه الاصلية من ذات نصوص القرآن والاحاديث . ولقد عبر الاستاذ مرجليوث عن رأيه في الموضوع بلهجة شديدة الا انها بالحق

عادلة فقال بالنسبة الى الصحابة المحمديين : «ان الذين يتصفحون تاريخ الاسلام يجب عليهم ان يطرحوا أحكام الآداب جانباً و بغير ذلك تكون صورة بحثهم قاتمة لانهم لا يمكنهم ان يخطوا حرفاً واحداً مطلقاً اذا كانوا يستسلمون الى الخيانات وسفك الدماء واستعمال القسوة والاسترسال في الشهوات وهي امور كانت شائعة بين الصحابة اثناء الفتوحات الاسلامية ومع ذلك فان القرآن نفسه يدعو الى الامتناع عن الثلاثة الاولى ويضع بعض القيود الخفيفة للرابعة . ومما لا شك فيه ان النهر لا يمكن ان يعلو على منبعه كما لا يمكن ان يكون عرض المأذنة اكبر من قاعدتها» وقول هذا الاستاذ يأتي بنا الى حقيقة ظاهرة وهي القول ان آداب محمد النبي هي منبع وأساس كل مبادئ آداب الاسلام . فاذاً لا يجوز لنا ان ندهش لان درجة الآداب الاسلامية هكذا نوعاً ما في كل مسلم على الاطلاق حتى في شخص الغزالي نفسه ولو ان آدابه حسب تعاليمه كثيراً ما تفوق عن الآداب التي هي حسب تعاليم القرآن مع انه كثيراً ما يذكر النبي في كل تعاليمه عن الآداب وفي مؤلفاته كأن النبيّ في نظره أعلى ما يتطلع اليه . ولقد اورد في كتابه «الدرة الفاخرة» شطراً مأخوذاً من الحديث حبذ فيه قول السيد يسوع المسيح الذي ذكره في صفحة ٢٤ من الطبعة المصرية .

ويشير قول الغزالي الذي اورده عن المسيح الى يوم القيامة حينما تبحث الامم كلها مع اختلافها عمن يتوسط في انالتها رضوان الله وغفرانه وانقاذها من زفير جهنم الخ «لنا شفيع . . . يسوع المسيح البار» (١ يو ٢:٢)

اننا اذا اعتبرنا العصر الذي عاش فيه الغزالي ، واذا تذكرنا تربيته الاسلامية ، وآدابه الاسلامية ، فان الاستاذ ماكدونالد قال في هذا الصدد : «ان موقف الغزالي في تلك الحالة صار مدركاً ومفهوماً. ويعلمنا الغزالي اننا مدينون لاولياء الله الذين اظهر الله نفسه لهم فنالوا حظ الاتصال بالحضرة القدسية أي اننا مدينون بكل نواميسنا ونظرياتنا لهم وان استنتاجاتنا واستدلالاتنا كل هذه وتلك قد استقيناها من فيوضات اولياء الله لان الله لم يترك نفسه بلا شاهد بل كان له اولياء في كل مكان وكل زمان يشهدون للنور الباطني الذي نالوه من الله. واننا بدون«مدد»هؤلاء «القديسين» ونورهم لا نستطيع ان نعرف انفسنا. ومن كل هذا يتضح لنا اتجاه نظر الغزالي وموقفه الاساسي الذي يعلم أن مصدر كل معرفة هو وحي من الله سواءاً كان وحياً متلواً أتى من الله بواسطة الانبياء والرسل الذين أيدهم الله بالآيات البينات وبحق الرسالة الى البشر — او كان وحياً غير متلو أي وحياً

تفسيرياً ثانوياً كالالهام الذي يلهم الله به القديسين والاولياء المتفاوتي الطبقات والدرجات لان منتهى الاولياء في الاتصال هو مبتدأ الانبياء مما يدل على ان السلسلة تامة كاملة متصلة الحلقات فاذا حُرم الانسان من هذه الارشادات فكأنه اعمى يتخبط في دياجي الظلام» اهـ : انتهى قول الاستاذ ماكدونالد الذي لخص لنا به موقف الغزالي أمام الآداب الاسلامية ونحن نزيد على ذلك انه غير خاف على القارئ ان الغزالي يقصد بالوحي المتلو القرآن نفسه ، ولا يحتاج الامر الى ان نعرّف القارئ من هم هؤلاء الاولياء اصحاب الوحي الغير المتلو الذي هو الالهام حسب تعليم الغزالي لانهم معروفون في الشرق بتجولهم بملابس الدراويش ، او بالثياب الممزقة الرثة والريق السائل والاقدام الحافية والرؤوس العارية ، وهم دائماً منبثون بين أبناء الطرق الصوفية وليس من الضروري توضيح العبارة ، لان اللبيب تكفيه الاشارة، اجتناباً للخوض في أوصاف النجاسات والقذارة

ولقد عرّف علماء شريعة الاسلام بما فيهم الغزالي ان الخطية عمل يشعر به الشخص المكلف البالغ العاقل الحر ويشعر ان هـذا العمل ضد العرف وضد الاجماع وضد الاحكام الشرعية ، وعرّفوا ان ما يرتكبه الاطفال من الخطايا عن جهل لا يحسب في نظرهم كأنه

خطايا حقيقية . ويقسمون الذنوب الى قسمين كبائر وصغائر . وقال بعضهم ان الكبائر سبع . وقال آخرون انها سبع عشرة الخ وقد قسم المسلمون الاولون أيضاً الذنوب الى كبيرة وصغيرة . ولما رأى الغزالي ان الصعوبة الادبية واقفة امامه في سبيل حياته تنصل منها بأسلوب لطيف فقال « ان الصغائر بالاستمرار عليها تصبح من الكبائر لكثرة ارتكابها كما يذوب الحجر من استمرار نزول نقط الماء عليه » وأبان ان الانسان اذا اعتبر ذنوبه من الصغائر اعتبرها الله من الكبائر واذا اعتبر الانسان ذنوبه من الكبائر اعتبرها الله من الصغائر . ولا ريب ان قوله هـذا انما هو تمهيد للتوبة وضرورتها وظل لحقيقة سماوية عظمى أعلنها المسيح للغزالي في انجيله الطاهر حيث قال: « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وأنا أريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني لاني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لان نيري هين وحملي خفيف » (مت ١١: ٢٨و٢٩) وبعد ان قسم الغزالي الخطايا التي تتغلب على القلوب الى أربعة أقسام أو درجات وفصل كل قسم منها رأيناه في آدابه الشخصية كغيره من علماء المسلمين لا يمتاز عنهم الا بمظاهره الصوفية حتى اننا لم نر في مؤلفاته الكثيرة الخاصة بعلم الآداب فاصلاً ظاهراً بين أحكام الدين والشريعة الادبية

مع ان كلمة « آداب » في اللغة العربية تشير الى السلوك واللياقة والحشمة ودماثة الاخلاق واحترام الاكبر سواء أكان في السن أو المقام . وهذا كله نجده مذكوراً في الوصايا العشر المذكورة في الفصل العشرين من سفر الخروج في الكتاب المقدس تلك الوصايا التي هي أساس الاخلاق النبيلة كما قرأ ذلك الغزالي وعرفه يقيناً من التوراة. وكما هو ظاهر مما كتبه في كتابه (« الادب في الدين » وجه ٢و٣) حيث قال : « ان أكمل الاخلاق وأعلاها ، وأحسن الافعال وأبهاها ، هو الآداب في الدين ، وما يقتدي به المؤمن من فعل رب العالمين ، وأخلاق النبيين والمرسلين ، وقد أدبنا الله تعالى في القرآن ، بما أرانا فيه البيان ، وأدبنا بنبيه محمد (ص) في السنّة ، بما أوجب علينا فله المنة ، وكذلك الصحابة والتابعون ، ومن بعدهم أهل الادب من المؤمنين ، بما أوجب علينا من الاقتداء بهم ، وذلك جليل خطره . كثير عدده ، نذكر بعضه لئلا يطول شرحه فيعسر فهمه الخ » ولقد أشار الى ما اقتبسه من التوراة والانجيل بقوله « بالاقتداء بفعل رب العالمين وباخلاق النبيين والمرسلين » كما هو ظاهر من الاقتباس وقد رأينا أيضاً ان فقرات كتابه هذا دلتنا على تأثير الوسط والمعتقد عليه وها هو أنموذج منها : « آداب العالم — آداب المعلم — آداب المقري —

آداب معلم الصبيان — آداب طالب الحديث — آداب المحدث — آداب الكاتب — آداب الواعظ — آداب المستمع — آداب الناسك — آداب اعتزال الناس — آداب الشريف — آداب النوم — آداب التهجد — آداب الحمام — آداب الخلاء — آداب التاجر — آداب الصيرفي — آداب الصائغ — آداب الاكل — آداب الشرب — آداب الرجل اذا أراد النكاح — آداب المرأة اذا خطبها الرجل — آداب الجماع — آداب الرجل مع الزوجة — آداب المرأة مع زوجها — آداب الجلوس على الطريق الخ» ولا يمكن الا ان نقول ان البيت يعرف من عنوانه ولذلك لا نتعرض لتعاليم الغزالي عن آداب الاجماع أو أمثالها لا من باب التصريح ولا من باب التلميح لان غرضنا تقدم القراء في حياة الطهارة تقدماً محموداً ولذلك فقد اخترنا أبسط النماذج وأسلمها عاقبة وهي آداب الاكل والشرب كما كتبها الغزالي حرفياً وها هي :

﴿آداب الاكل﴾ — «غسل اليدين قبل الطعام وبعده والتسمية والاكل باليمين ومما يليه وتصغير اللقمة واجادة المضغ وقلة النظر الى وجوه الحاضرين ولا يأكل متكئاً ولا يأكل فوق الشبع وفوق الجوع ويعتذر اذا شبع حتى لا يخجل الضيف أو من به حاجة ويأكل من جوانب القصعة ولا يأكل من ذروتها ويلعق

الاصابع بعد الفراغ ويحمد الله ولا يذكر الموت عند الاكل لئلا ينغص على الحاضرين»

﴿آداب الشرب﴾ — «ينظر في انائه قبل شربه ويسمي الله تعالى قبله ويحمده بعده ويمصه مصاً ولا يعبه عباً ويتنفس في شربه ثلاثاً يتبعه بالتحميد ويرد بالتسمية ولا يشرب قائماً ويناول من كان على يمينه ان كان معه غيره»

ولكن مما يدهشنا انه لم يذكر شيئاً في تعليمه عن الصدق ولا عن نقاوة القلب ولا عن الشجاعة الادبية ولا عن نبالة المقاصد ولا ما شاكل ذلك من المواضيع الادبية الهامة التي تبني الانسان في سبيل الله وسبيل الطهارة حقيقة

وفضلاً عن أهمال الامام لمثل هذه الفضائل التي لا ترى بالحقيقة الا في الديانة المسيحية النقية الطاهرة فانه في فصل من فصول كتابه «احياء علوم الدين» الذي يقول الشيخ الغزالي نفسه ان النبي محمد العربي ظهر له في الرؤيا واثنى عليه وشجعه لاجله . تناول الشيخ البحث في متى يكون الكذب محللاً ومرخصاً فيه وأبان لقرائه بكل وضوح ان الغاية تبرر الواسطة «كنظرية همج نصارى العصور الوسطى» وان النبي مصادق على هذه النظرية فقال :—

« اعلم ان الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره فان أقل درجاته ان يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً . قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق . أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف انسان بالسيف ليقتله ودخل داراً فانتهى اليك فقال أرأيت فلاناً ؟ ما كنت قائلاً ؟ ألست تقول لم أره وما تصدق به وهذا الكذب واجب ؟ فنقول : الكلام وسيلة الى المقاصد (يعني ان الغاية تبرر الواسطة مهما كانت الواسطة منحطة سافلة كالكذب مثلاً) فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام . وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك الكذب مباحاً وواجب ان كان المقصود واجباً كما ان عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب او اصلاح ذات البين او استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا انه ينبغي ان تحترز منه ما أمكن لانه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً في الاصل إلا لضرورة والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ،

والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها . وقالت ايضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً . وقالت اسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما الخ — الخ» (كتاب احياء علوم الدين جزء ٣ وجه ٩٦)

وليت الامام الغزالي تذكَّر أحكام الانجيل وهو يكتب هذا الفصل المحزن لانه لو رجع الى الانجيل لعلم ان الكذاب محروم من ملكوت الله وان ابليس هو الكذاب وأبو الكذاب وانه لا خير في الكذب مهما جرّ وراءه من المنافع المادية أو نحوها لان الكذب يفصل الكذاب عن الله الى أبد الآباد . والشر كل الشر في الانفصال عن الله : «ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم»

ان امامنا الآن وجهة نظر الغزالي في تعليم علم الآداب الاسلامية . وحقيقة الامر انه أورد فصلاً في كتاب الاحياء علم فيه عن تأديب الاولاد وتحسين عقليتهم . ولم ندهش لانه لم يذكر فيه شيئاً خاصاً بتأديب البنات لانه ليس في أيام الغزالي فقط بل حتى الآن يرى كثيرون من علماء الاسلام وثقاته انه ليس من اللائق

تعليم البنات القراءة والكتابة ولذلك ضرب الغزالي صفحاً عن تعليمهن بالمرة . وقد بدأ فصله المذكور هكذا :—

« اعلم ان الطريق في رياضة الصبيان من اهم الامور واوكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم ناراً . ومهما كان الاب يصونه عن نار الدنيا فبان يصونه عن نار الآخرة اولى ، وصيانته بان يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الاخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة واسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الابد بل ينبغي ان يراقبه من اول أمره فلا يستعمل في حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال (واين هي في الاسلام ما دام تأديب البنات وتهذيبهنّ ممنوعاً شرعاً ؟) فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث . ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغي ان يحسن مراقبته واول ذلك ظهور اوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الافعال فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه — (وبعد ان يحث الوالدين على منع الصبيان عن الغذاء الغير النظيف وعن الشراهة وعدم الاحتشام يعود فيبدي نصيحته للوالدين بان يلبسوا الصبيان

ملابس بسيطة رخيصة فيقول) — وان يحبب اليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين وان الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوباً من ابريسم او ملون فينبغي ان يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذاباً حسوداً سراقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة وانما يحفظ من جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخيار وحكايات الابرار واحوالها لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له انه يتصور ان يتجاسر احد على مثله ولا سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه فان اظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانياً فينبغي ان يعاتب سراً ويعظم الامر فيه »
(كتاب احياء علوم الدين جزء ٣ وجه ٥٣)

هكذا كان تعليم الغزالي في علم الآداب وهو خليط غريب ومزيج مر بين النصائح الطيبة والرديئة ، هكذا كان هذا التعليم

المدهش الصادر من استاذ كبير كانت له المكانة العليا دائماً بين العلماء وكان كعمود الاسلام وركن أصوله واكبر الثقات في علوم الآداب الاسلامية ، وآداب النكاح لها مقام كبير في كتب الاسلام عامة وفي كتب الغزالي خاصة . فُرِض النكاح على كل مسلم ومسلمة وابتذلت العزوبة . وقد قال في ذلك النبي محمد (ص) : «النكاح سُنّتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني» وورد عنه في حديث آخر : «من رغب عن سنتي فليس مني وانّ من سنتي النكاح فمن أحبني فليستنّ بسنتي» حتى ان شيوخ مشايخ الصوفيين العظام هم في غالب الامر متزوجون وعلى ذلك فان نذر العذوبة لم يكن معترفاً به ولا معروفاً عند الصوفيين أجمعين . وقد عرّف فقهاء الاسلام النكاح فقالوا : «هو عقد يمتلك بواسطته الزوج زوجته ويسمح له بالتمتع بها اذا لم يوجد عائق شرعي يمنع من ذلك» وقال الغزالي في الموضوع :—

« اما العقد فاركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحلّ أربعة الاول أذن الوالي فان لم يكن فالسلطان . الثاني رضا المرأة ان كانت ثيباً بالغاً أو كانت بكراً بالغاً ولكن يزوجها غير الاب والجد . والثالث حضور شاهدين . . . الرابع ايجاب وقبول » (الاحياء ج ٢ وجه ٢٤)

واما من جهة انتقاء الزوجة فهو على جانب عظيم من الصعوبة على الزوج لان المرأة وهي عمود البيت ونوره ومدرسة الاطفال الاولى ساذجة جاهلة لم تسمح الآداب الاسلامية بتعليمها في ذلك العصر ولكن الغزالي حمل تلاميذه ما لا يطيقون وما لا يطيق هو فنصحهم ان يبحثوا عن زوجات حاصلات على الميزات الآتية وهي ثمانية :

« الدين والخلق والحسن وخفة المهر والولادة والبكارة والنسب — وان لا تكون قرابة قريبة ... (الاولى) ان تكون صالحة ذات دين ... فانها ان كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها زرت بزوجها : (الثانية) حسن الخلق وذلك اصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين . . . ثم قال : لا تنكح اربعاً المختلعة والمبارية والعاهرة والناشز الخ (الثالثة) حسن الوجه فذلك ايضاً مطلوب إذ يحصل التحصن ... والغالب ان حسن الخلق وحسن الخلق لا يفترقان ... وقال عليه الصلاة والسلام خير نسائكم من اذا نظر اليها زوجها سرته واذا أمرها اطاعته وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله وانما يسر بالنظر اليها اذا كانت محبة للزوج (الرابعة) ان تكون خفيفة المهر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء احسنهن وجوهاً وارخصهن مهوراً . وقد نهى عن المغالاة في المهر . تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم واثاث بيت وكان رحى يد وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف . وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير (الخامسة) ان تكون المرأة ولوداً فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها (السادسة) ان تكون

بكراً . قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيباً : هلاً بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ وفي البكارة ثلاث فوائد أحدها ان تحب الزوج والثانية ان ذلك اكمل في مودته لها والثالثة انها لا تحن الى الزوج الاول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الاول غالباً (السابعة) ان تكون من أهل بيت الدين والصلاح الخ (الثامنة) ان لا تكون من القرابة القريبة فان ذلك يقلل الشهوة . . . فان الولد يخلق نحيفاً ,وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة الخ» (احياء علوم الدين جزء ٢ وجه ٢٧ و٢٨

وفي موضع آخر قال الغزالي اقوالاً خطيرة جامعة لعلاقة الذكر بالانثى أشار اليها المؤلف في اللغة الانكليزية تلميحاً لا تصريحاً مع الاعتذار عن ترجمتها الى الانكليزية . ونحن في هذه الترجمة ايضاً نقتصر على الاشارة الى ما قاله حجة الاسلام الغزالي ونكتفي بان نشير اليه اشارات خفيفة بالاجمال لان الوسط الذي نحن فيه غير الوسط الذي كان فيه . قال الغزالي : «اذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوّامون على النساء فله أنْ يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ... ولكن ينبغي أن يدرّج في تأديبها وهو ان يقدم اولاً الوعظ والتحذير والتخويف فان لم ينجع ولاّها ظهره في المضجع او انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال فان لم ينجع ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ولا

يدمي لها جسماً ... وقد قيل لرسول الله (ص) ما حق المرأة على الرجل ؟ قال يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا اكتسى ولا يقبح الوجه ولا يضرب الا ضرباً غير مبرح ولا يهجرها الا في المبيت وله أن يغضب عليها ويهجرها في امر من امور الدين الى عشر والى عشرين والى شهر . فعل ذلك رسول الله (ص) الخ» وبعد ان قال ما قال عن آداب الجماع ، بين ايضاح والماع ، مما مرّ التلميح اليه على الابصار والاسماع ، انتقل الى آداب الولادة ، فجاء بما ليس فيه لقرائنا من افادة ، ثم وصل الى آداب الطلاق القتّال ، فصال وجال ، وها نحن نذكر لكم جزءاً يسيراً مما قال : ، لتعلموا ما وصلت اليه الحال ، وتدركوا المآل :

«ليراع الزوج في الطلاق اربعة امور . الاول أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه فان الطلاق في الحيض او الطهر الذي جامع فيه حرام ... فان فعل ذلك فليراجعها (وبعد ان ضرب المثل بتطليق ابن عمر زوجته وأمر النبي بالمراجعة بعد الطلاق قال) . الثاني ان يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث لان الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة ان ندم في العدة ، وتجديد النكاح ان اراد بعد العدة . واذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج الى ان يتزوجها محلل والى الصبر مدة وعقد المحلل منهي عنه ويكون هو الساعي فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطليقه اعني زوجة المحلل

بعد ان زوج منه ثم يورث ذلك تنفيراً من الزوجة وكل ذلك ثمرة الجمع وفي الواحدة كفاية في المقصود من غير محذور ولست اقول الجمع حرام ولكنه مكروه بهذه المعاني — الى ان قال — كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلاقاً ومنكاحاً . . . وكان علي رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبه ان حسناً مطلاق فلا تنكحوه حتى قام رجل من همدان فقال والله يا امير المؤمنين لننكحنّه ما شاء فان أحب أمسك وان شاء ترك فسر ذلك علياً وقال :

(ولو كنت بواباً على باب جنة　　لقلت لهمدان ادخلي بسلام)

والقصد من هـذا بيان أن الطلاق مباح وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعاً فقال وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال سبحانه وتعالى وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته . الرابع ان لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح الخ »
(احياء علوم الدين جزء ٢ وجه ٣٢ — وجه ٣٧)

ان جميع صلات الحياة بعللها ومعلولاتها، بسرورها واحزانها ، عُرِضت عرضاً متقناً في كتب الآداب الاسلامية التي ألفها وعلم بها الاستاذ الغزالي وكل مظهر من مظاهر السلوك وضع أساسه على ما قالوا انه كان من عادات النبي نفسه حتى انهم ذكروا في علوم آداب الاسلام كيف يأكل الانسان الرمانة بالضبط وكيف يخاطب زوجته وكيف يعاشرها وكيف يعاملها ليلاً ونهاراً الخ وكيف يغتسل وكيف

يتسوّك وكيف تكون معاملته مع اليهود والنصارى وذكروا انواع الزينة المسموح بهـا حتى أن البحث في مواضيع الطرب كان بحثاً جدياً في ايام الغزالي ولذلك برر استعمال الرقص والالحان اذا كان الغرض منها ذكر الله فقال :—

«فكل ما جاز السرور به جاز اثارة السرور فيه ويدل على هذا من النقل انشاد الناس فوق السطوح بالدف والالحان عند قدوم رسول الله (ص)

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع * وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

فهذا اظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود فاظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات ايضاً محمود فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا (أي رقصوا) في سرور اصابهم كما سيأتي في احكام الرقص وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من اسباب السرور ويدل على هـذا ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها قالت لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه وانا انظر الى الحبشة يلعبون (اي يرقصون) في المسجد . . . وقالت عائشة رضي الله عنها دخل عليّ رسول الله (ص) وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث (أي مهيج باعث على الشهوات) فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل ابو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فاقبل عليه رسول الله (ص) وقال دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فقال رسول الله (ص) أتشتهين

تنظرين ؟ فقلت نعم فاقامني وراءه وخدي على خده ويقول دونكم يا بني ارفدة حتى اذا مللت قال حسبك؟ قلت نعم قال فاذهبي . . . فهذه الاحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في ان الغناء واللعب ليس بحرام وفيها دلالة على انواع من الرخص (أي من التصريح والترخيص) الاول — اللعب ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب والثاني — فعل ذلك في المسجد . والثالث — قوله صلى الله عليه وسلم دونكم يا بني ارفدة وهـذا أمر باللعب والتماس له . . والرابع — منعه لابي بكر وعمر من الانكار والتغيير وتعليله بانه يوم عيد . والخامس — وقوفه طويلاً في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة — والسادس — قوله لعائشة أتشتهين تنظرين ؟ قال بعضهم رأيت مكتوباً في الانجيل : «غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا» اي شوقنا كم بذ كر الله فلم تشتاقوا . . وعن ابي الدراج انه قال كنت انا وابن القوطي مارين . . فاذا بقصر . ورجل بين يديه جارية تغني وتقول :—

كل يوم تتلوّن   غير هـذا بك احسن

فاذا شاب . . . يسمع فقال يا جارية بالله . . . الا أعدت عليّ هذا البيت فأعادت فكان الشاب يقول هذا والله تلوني مع الحق في حالي فشهق شهقة ومات . . . (الادب الرابع) . . . ان رقص او تباكى فهو مباح . . . والرقص سبب في تحريك السرور . . . وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم انهم حجلوا (رقصوا) لما ورد عليهم سرور اوجب ذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن ابي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحنوا في تربيتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلي أنت مني وأنا

منك فحجل علي وقال لجعفر اشبهت خَلقي وخُلقي فحجل وراء حجل علي وقال لزيد أنت اخونا ومولانا فحجل زيد وراء حجل جعفر ... وفي رواية انه قال لعائشة رضي الله عنها أتحبين ان تنظري الى زفن الحبشة ؟ والزفن هو الحجل والرقص وذلك يكون لفرح او شوق فحكمه حكم مهيجه ان كان فرحه محموداً والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود» (احياء علوم الدين جزء ٢ وجه ١٨٩ — وجه ٢٠٩ مختصر)

فيا للعجب !!! ان وجود المفارقات والتناقض بين نظريات الغزالي في تعاليمه عن علوم الآداب والسلوك لما يدهشنا ويحيرنا ويذهل عقولنا اذا تتبعنا آراءه. فانه رضي الله عنه احيانا يقودنا الى سلسلة من جبال عالية تناطح بقممها عنان سماء الآداب، ويظهر لنا في انوارها ظل حقائق ارادة الله القدسية وأفكار الحق عن الحياة الابدية في الدار الأخروية. وتارة ينزل بنا الى حضيض الميول العالمية الجسدية ويحبذ لنا ضروب الآمال التي لا تؤدي الا الى غاية واحدة لا نود ذكرها ويصرف أوقاتنا في ابحاث كهذه وما كنا لنظن ان عالماً عظيماً كالغزالي يخط مثل هذه الافكار بقلمه ويجتهد في اثبات سندها المتصل الى الصحيحين وغيرهما لولا سلطان الوسط والعادة. وما علينا الآن الا أن نرجع الى قمم جبال الآداب العالية الصحيحة التي يكون فيها الطقس صحياً يقوي العقل ويحسن الافكار ويعلق القلوب بالله تعالى

فان الغزالي مهما جارى أقرانه في بعض القضايا الادبية نظراً للوسط الذي كان فيه و نظراً لما كان مقيداً به من قيود المعتقدات فقد كان له افكار سامية حصل عليها بالاطلاع على كتب غير اسلامية كثيرة ونخص بالذكر منها الكتب المقدسة ولذلك استخدم هذه الافكار ايضاً لترقية الآداب الاسلامية فقال : «فاجتهد في معرفة اصلك حتى تعرف الطريق الى الحضرة الالهية وتبلغ الى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب وتعلم ان هذه الصفات لاي شيء رُكبت فيك فما خلقهم الله لتكون اسيرهم ولكن خلقهم الله ليكونوا أسراك وتسخرهم للسفر الذي قدامك وتجعل احدهما مركبك والآخر سلاحك حتى تصيد بهم سعادتك» (كتاب كيمياء السعادة وجه ٦).

ونرى ان الغزالي متأكد انه لا بد من بذل جهود اخلاقية لاجل الحصول على هذه الضالة المنشودة لان محاربة الشهوة حرباً حقيقية تكلف المجاهد كل شيء حتى تضحية نفسه عند اللزوم. وعندنا صورة طبق الاصل لهذه الحروب الاخلاقية المقدسة بنفس الالفاظ التي نطق بها يوحنا بنيان اذ قال :

«فقال الحيواني كنت أرى دائماً ان اسعد رجل في الكون من لاينكر على نفسه شيئاً من لذاتها ولم اخالف قط هذا الرأي بل عشت

حسب أميالي واذ وجدت لذة هذه المعيشة لم أبخل بخل الآخرين على التمسك بها مادحاً لهم اياها . فقال أرباب المجلس ما حاجتنا بعد الى شهود ؟ قد سمعنا من فمه ما يكفي لاثبات التهمة عليه . ثم التفتوا الى السجان وقالوا أقمه (أي اسجنه) الى جانب صاحبه . . . فعند ذلك قال القاضي لارباب المجلس . أيها السادة قد رأيتم هؤلاء وسمعتم الشكوى عليهم . . وبقي ان تحكموا في أمرهم : . . فاجاب كبيرهم الموقن قد أجمعنا على انهم يستحقون الموت . فالتفت القاضي الى السجان وقال له احتفظ بهم اذاً الى الغد الخ» (الحرب المقدسة وجه١٩٩ —وجه٢١٦)

فالجهاد اذاً محصور بين الجسم والروح ولا بد ان الغزالي جرب بنفسه كما جرب بولس الرسول وكما هو ظاهر في وصفه الاول . فان هذا الامام يعرف العراك الداخلي القائم بين اميال الانسان ويعرف السامي منها والدنيء تمام المعرفة ولذا كرر ما هنالك من التناقض بين النفس والجسد في ما يختص بمركزيهما وقدرهما الادبي وفي مجاهدتهما للحصول على أعلى الدرجات — فكلاهما من الله وكلاهما عطية لنا وكلاهما يعلن لنا حكمة الله وقدرته . ولكن لا توجد مقارنة ولا مناسبة عند ما نحاول تقدير قيمة هذه العطية الحقيقية ولذا قال الامام الغزالي رضي الله عنه :

«اذا شئت ان تعرف نفسك فاعلم انك مركب من شيئين (الاول) هذا القالب (الثاني) يسمى النفس والروح والنفس وهو القلب الذي تعرفه بعين الباطن وحقيقتك الباطن لان الجسد أول وهو الآخر . . . واما حقيقة القلب فليس من هذا العالم لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم غريب وتلك القطعة اللحمية مركبة وكل اعضاء الجسد عساكره وهو الملك . ومعرفة الله تعالى ومشاهدة جمال الحضرة صفاته ، والتكليف عليه ، والخطاب معه ، وله الثواب ، وعليه العقاب ، والسعادة والشقاوة تلحقه ، والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه ، . . . فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لانه جوهر عزيز» (كيمياء السعادة وجه ٧و٨) والفضائل الاربع التي هي كما قال الغزالي :

«(١) اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة (٢) توبة نصوح لا يرجع بعدها الى زلة (٣) استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لاحد عليك حق (٤) تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به اوامر الله تعالى» (رسالة ايها الولد وجه ١٣)

وقد اخذ الغزالي هذا الترتيب عن «افلاطون» وعن كثيرين غيره ممن تكلموا عن نظرية السلوك ولكن الغزالي سبك كل ماأخذه في قالب اسلامي وطلاه بلغة وبلاغة القرآن وحاطه باسانيد من الاحاديث ومن أقوال علماء الاسلام والصحابة ومن أقوال من ظهر أخيراً من كبار الصوفيين فاظهر الشيء العام كأنه خاص والغير الاسلامي كأنه اسلامي ، وهذا جهاد لو تعلمون عظيم

جميل جداً تقليد الغزالي لبولس الرسول في ذكر كل رذيلة

تجاه ما يكسفها من الفضيله لانه بذلك اعطانا صحيفتين (الاولى) من اطلاعه على تعاليم بولس الرسول (والثانية) من تجاريبه الخاصة التي اشار اليها في كتابه المنقذ من الضلال فقد ابتدأ فاورد ما يأتي من الاحاديث الشريفة النبوية :—

«قال صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في جهنم ولا ابالي » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٥) وقال : «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة انما أنت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي . وقال للنار انما انت عذابي اعذب بك من اشاء » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٥) وقد اورد حديثاً آخر ولكنه بلا شك مقتبس من الانجيل المقدس تقريباً وهو : « قال رسول الله (ص) لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل ايمان (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٤ و٢٣٥) وانه لحديث عظيم

ثم ذكر تعريف التواضع هذا : «قال ... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائماً فاتيناه عند الافطار بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال اما اني لا احرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله ومن أكثر ذكر الله احبه الله » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٦)

وبهذه المناسبة ذكر الغزالي ما قاله سيدنا المسيح له المجد فقال :

«وقال المسيح عليه السلام طوبى للمتواضعين في الدنيا وهم اصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا وهم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا وهم الذين ينظرون الى الله يوم القيامة» (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٧) «ولذلك قال المسيح عليه السلام ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر الا ترون ان من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ أظله وأكنه ؟ » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٤٠) وقد ذكر الغزالي كثيراً من انواع الكبرياء في المعرفة والعبادات والتفاخر بالحسب والنسب والمحتد والجمال والهندام والغنى والجاه والسطوة والقوة والزعامة وذكر تواضع النبي محمد الذي أكل مع خادمه وطحن على الرحى لنسائه ولم يرفض الدعوى الى وليمة الخ » (انظر كتاب احياء العلوم جزء ٣ وجه ٢٤٨) فليت القراء يتواضعون أمام نعمة الحق

ومما يلفت النظر ان الغزالي عندما يرتقي الى قمة تعاليمه الادبية يبني نظرياته على أقوال المسيح كما سترون في الفصل الاخير من فصول هذا الكتاب. ولقد بذل الغزالي جهد الجبابرة ليجد في شخصية نبيه محمد الافكار السامية والآداب العالية التي يشعر هو نفسه بها ليسندها اليه عندما يعلم او يكتب افتخاراً باخلاق وأفكار نبيه . واجتهاده ظاهر ولولم يجد الا النذر اليسير مما هو في قدرة كل انسان

في الوجود بدون استثناء — ان أخلاق النبي محمد كما هي ظاهرة من أحاديثه الشريفة ومن تاريخه ومن آراء الأئمة من اتباعه تؤكد لنا انه لم يكن بعيداً جداً عن نصوص الكتب المقدسة بل كان ينظر اليها في حياته بعين الاجلال والاكرام كما جاء في القرآن عن القرآن: «وانه لفي زبر الاولين»

الفصل السابع

تصوف الغزالي

كانت المرحومة رابعة العدوية التي دفنت في القدس الشريف احدى الصوفيات الكبيرات في صدر الاسلام تقريباً . كانت من اهالي البصرة ولكنها توفيت ودفنت في القدس الشريف وكان القوم يهرعون الى ضريحها في العصور الوسطى كما يقول ابن خلكان ولا ريب ان الغزالي كان يكرر زيارته لهذا الضريح ايام وجوده في القدس الشريف . وقد اورد عنها في كتابه الاكبر ما يأتي : «قال ابو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر . فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه ان نصوم له غداً» (الاحياء ج ٤ وجه ٢٩٨)

وأما صوفيو الاسلام فقد اكتسبوا اسم التصوف» أخذاً عن أبي الخير التيناني الصوفي المذكور في جزء ٣ وجه ١٩ من الاحياء والذي عاش في أواخر القرن الثاني للهجرة المحمدية لانه هو ومن تبعه كانوا يلبسون جلباباً من الصوف . ومن كلمة «صوف» أخذوا اسم

تصوف. وفي أواخر القرن الثالث كان الجنيد الذي عاش حوالي ٢٩٧ بعد الهجرة هو الزعيم الاكبر لهذه الحركة الصوفية التي انتشرت في الاسلام . وكان الزعيم (الجنيد) من اكبر الثقات الذين أخذ عنهم الغزالي وكانت الصوفية عبارة رد فعل للتوحد والتقشف الخاص بالزاهدين من المسلمين . ولم يكن هذا النوع ليوفي حاجات أولئك الذين يفكرون كثيراً من أمم الشرق الذين اعتنقوا الاسلام بكثرة في الايام التي سلت فيها سيوف الفتوحات . وقد انتشرت تعاليم هذا المبدإ الجديد في جميع الاقطار الاسلامية واختلطت بجميع طبقات القوم وبهذه الوسائل اكتسبت الطريقة الصوفية آراء متنوعة من وجهات كثيرة شيئاً فشيئاً . ومع هذه الحقائق كلها ما زلنا نراهم يقولون ان مبادئهم هذه مبنية على تعاليم القرآن الشريف والاحاديث النبوية الشريفة فتأمل في هذا بعين البصيرة !! ولكن ...
«لعلّ لهم عذراً وأنت تلوم»

ان صوفي الاسلام كما قال نيقولسون لم ينقلوا مبادئهم عن المسيحية والافلاطونية فقط ولكنهم نقلوها أيضاً عن الغنوسستية والبوذية.

وفوق هذا فاننا نرى في كثير من مؤلفات الصوفيين القدماء

آيات كثيرة جداً من أقوال سيدنا وفادينا المسيح له المجد وقد أخذوا ايضاً عن المسيحيين استعمال لبس الصوف والسكوت والذكر وبعض أعمال خاصة بنكران النفس وكانت تعاليمهم ذات شأن يذكر وفيها مقارنات عديدة لخصها نيقولسون بقوله : «هذه الكلمات نفسها ذكرت عن نبي الاسلام كما ذكرها مار يوحنا ومار بولس الرسولان ومن جاء من بعدهما من آباء الكنيسة اللاهوتيين عن المسيح فان الصوفيين الاولين قالوا عن النبي محمد إنه نور الله وانه موجود قبل خلق العالم وانه ينبوع الحياة بكل انواعها وانه الانسان الكامل الذي وُهبت له جميع الصفات الالهية وقد روى الصوفيون عن نبي الاسلام انه قال «من رآني فقد رأى الله» ومع ذلك فاننا نرى في تعليم الاسلام ان التعليم عن «لوغوص» أي «الكلمة» في مقام أقل من الافلاطونية وهذا يتأكد لنا عند ما نرى ان الاعتقاد في واجب الانسان هو انحصاره في معرفة وحدة الله

وقد تعلموا الافلاطونية الجديدة فتعلموا الصدورات والوجد — والجزء الآتي من مذهب السبعين ألف حجاب كما ظهر في حديث أحد المشايخ الصوفيين الذي ألقاه للقس جردنر يؤكد لنا ان هنالك آثاراً باقية من تعاليم الغنوستيين . قال ذلك الاستاذ الصوفي في

حديثه المذكور : «سبعون ألف حجاب يفصلون الله الذي هو الحقيقة الواحدة عن عالم الماديات أو المحسوسات، وكل نفس تمر قبل ولادتها بكل هذه السبعين ألف حجاب، فالنصف الداخلي لهذه الحجب نور والنصف الخارجي لها ظلام، وفي مرورها على كل واحد من حجب النور في هذه السياحة التي تقوم بها النفس قبل الميلاد تخلع النفس صفة من الصفات السموية، وفي مرورها على كل واحد من حجب الظلام تلبس صفة من الصفات الارضية ولذا فان الطفل يولد باكياً لان النفس تعلم صعوبة انفصالها عن الله وابتعادها عن الحقيقة الواحدة سبحانه وتعالى، وعند ما يبكي الطفل في نومه يكون قد تذكر شيئاً مما فقده مما كان له قبل ولادته [1] وأيضاً فالمرور من تلك الحجب كلها جلب علينا النسيان ولذا سمي الرجل منا انسان، وكل منا مسجون في داخل جسمه يفصله ذلك الجسم عن الله وأما

(١) أما بكاء الطفل عند الولادة فلصغر جسمه عن احتمال ضغط هواء الجو بعد ان كان مكنوناً في بطن أمه منذ بدء تكوينه ولشدة ضغط الام عليه اثناء الولادة لانه لا يولد بسهولة كما هو معروف عند كل من له ذرة من العقل . وأما بكاؤه في كل ايام صغره فهو لانه يتألم من الامراض المحيطة بالاطفال عادة أو يكون جائعاً فلا يرى خير مترجم عن حاجته سوى البكاء . وأما بكاؤه اثناء النوم فهو لان الطفل كثير الاحلام فيحلم انه جائع أو ان في يد أخيه الاكبر منه شيئاً يريده لنفسه مثلا فيبكي لانه حديث بين مظاهر العالم

(المصحح)

الغرض الاسمى عند الصوفيين فهو ان يتمكن الانسان من الهرب من هذا السجن ورؤية تلك السبعين ألف حجاب والعود الى الصلة الاصلية مع الواحد الاحد حال كونه ما زال مسجونا في هذا الجسد

أما من جهة تأثير البوذية فقد لفت الاستاذ «جولدزيهر» نظر العالم الى أن تعليم بوذا كان له تأثير هائل في دولة الفرس الشرقية في القرن الحادي عشر وعلى الاخص في مدينة «بلخ» وهي مدينة شهيرة بكثرة عدد الصوفيين الذين كانوا يقيمون فيها. وعن البوذيين أخذ استعمال (السبحة) (وقد استعملها المسيحيون بعد ذلك في اوروبا) وربما استعملها ايضاً اتباع مذهب الفناء في الله

قال نيقولسون: «بينما يختلف التعبير عن الفناء اختلافاً جوهرياً عما قاله برقاتا نرى ان الالفاظ تتفق اتفاقاً قريباً جداً في وجهات أخرى بشكل يجعلنا نعتقد انهما ليسا منفصلين انفصالاً تاماً فان الفناء له وجهة أدبية وهو يحبذ فكرة ابعاد الشهوات والرغبات ويفهمنا ان انفراط عقد الصفات الرديئة يأتي (كما يقولون) من الاستمرار على الاتصاف بالضفات والاعمال الطيبة التي هي ضدها»

فتأديب النفس وتهذيب الاخلاق بواسطة التأمل في الخالق سبحانه وتعالى والغرض الاول عند الصوفيين ولكي يعرف الانسان

الله وجب عليه ان يكون شديد الروحانية فيه وأخيراً يذهب الى الفناء التام فيه ومن أقوال الصوفيين المأثورة المنسوبة الى الذات الالهية حديث قدسي رواه النبي عن الله . قال الله عز وجل : «كنت كنزاً مخفياً فأردت ان أعرف وأعبد فخلقت الخلق فعرفوني وعبدوني» وكما ان العالم هو مرآة الله فهكذا قلب الانسان في نظر الصوفيين هو مرآة العالم . واذا أراد الانسان ان يعرف الله وجب عليه ان يبحث عنه في قلبه . وقال الغزالي في هذا :

«اعلم ان العلوم التي ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال تختلف الحال في حصولها . . . وحقيقة القول فيه ان القلب مستعد لان تنجلي فيه حقيقة الحق في الاشياء كلها وانما حيل بينه وبينها بالاسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب المسدل الحال بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله الى يوم القيامة وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه كذلك قد تهب رياح الالطاف وتنكشف الحجب عن عين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق

الخاطف واخرى على حد ما دوامه في غاية الندور فلم يفارق الالهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الالهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم انما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة واليه الاشارة بقوله تعالى : «وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء» فاذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف هو الى العلوم الالهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة واشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانكشف عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الامور الالهية» (كتاب احياء علوم الدين جزء ٣ وجه ١٤ و١٥)

فالفناء في الله أو الاتحاد معه هو الغرض الاسمى في تعاليم الصوفيين واعمالهم وانكار النفس كلية يمهد الطريق لفهم كنه الحق ولهذا الطريق الى الله درجات قيل على وجه عام انها ثمانية وهي : الخدمة — المحبة — التصوّر — المعرفة — الارتقاء — الصدق —

الاتحاد — الفناء — . وقد ذهب بعض الصوفيين الى ان طرحوا ظواهر الدين جانباً ولم يكترثوا بقوانين العرف والآداب . والغزالي بحمد الله لم يكن من زمرة هؤلاء المرتكبين . ولقد كان يقول ان الفقيه العادي لا يمكن ان يسير في طريق الصوفي لانه لم يزل عبداً للالغاز متجولاً في دياجير الظلام فان الصلاة والحج والصيام تكون ذات معنيين أحدهما خارجي يفهمه الرجل العادي والثاني يفهمه الرجل الصوفي الحقيقي الذي وهب نفسه لله تماماً — وكان الامام الغزالي يعلم حق العلم بالخطر الداهم الآتي من وراء الصوفية من جهة نفس العقيدة لانها مائلة الى وحدة الوجود وتأليه الكون وكذلك الميل الى مذهب الاباحية (١) وقد رأى الغزالي ان انفصال الدين عن الآداب لهو المصيبة العظمى . ومن المؤكد ان الامام الغزالي قد انتابته نوبة حزن شديد من أمثال شعر فيلسوف الاسلام عمر الخيام الذي قال فيه :

إِنَّ عَقْلِي ضَيَاعُ عَقْلِي وَدِينِي ... أَنْ لاَ دِينَ لِي وَيَقِينِي
أَنَّ خَمْرِي شَرُّ ٱلزَّمَانِ تَقِينِي ... فَلَأُطَلِّقْ دِينِي وَعَقْلِي بَتَاتَا

(١) أي ان كل شيء مباح لهم ولو كان شراً وقد ندد الغزالي عليهم في الاحياء جزء ٤ وجه ٣١ سطر ٩ و ١٠ (المصحح)

وَأَخْطُبُوالِي إِلَى الكرومِ الفَتَاتَا بنتُ كَرْمٍ كَرِيمَةٌ وَأَبُوهَا
رَجُلٌ صَدْرُهُ يَضُمُّ رِجَالاَ

(عمر الخيام ترجمة البستاني وجه ٨٥)

ان تعاليم الغزالي عن الخطية والتوبة كانت على أساس أمتن من ذلك كثيراً كما سنرى في ما بعد. ومن الرجوع الى العصور الاولى نرى ان مذهب تأليه الكون وجد لنفسه مكمناً هاماً في خراسان بين المسلمين وان الفكرة القديمة عن التجسد ظهرت عندما انفصلت شيعة الشاه واعجبت بعليّ ذلك الاعجاب الهائل. أما شيعة «الجعفرية» فقد ألّهت الامام جعفر الصادق وعبدته كأنه الله. واعتقد غيرهم ان الروح القدس نزل على عبدالله بن عمر. وفي خراسان انتشر الاعتقاد ان ابا مسلم الخراساني القائد العظيم الذي تغلب على دولة بني امية واقام بدلاً منها دولة العباسيين كان هو نفسه رمزاً جسدياً لروح الله. وفي نفس الاقليم الذي كان يحكمه المنصور ثاني خلفاء العباسيين كان هناك زعيم ديني يسمى «أوستاسس» قال انه مظهر من مظاهر الله. وقد التفّ حوله الوف من الناس ولم يمكن التغلب على هذه الحركة الا بعراك شديد. وفي ايام الخليفة المهدي ظهر شخص سمى نفسه

«الله المتجسد» واسمه عطا ولانه كان دائماً يلبس خوذة ذهبية كان يلقب بالمقنع وقد تبعه كثيرون ووقف امام وجه الخليفة عدة سنين الى سنة ٧٧٩ ميلادية حيث حجز في قلعته فقتل نفسه هو وكل حريمه وخدمه . فآراء الغزالي في هذه المناظرات الصوفية وخطر هذا النوع من التصوف كل هذه قد ذكرها في كتابه «تهافت الفلاسفة» حيث ردّ على عشرين اصلاً من اصولهم الخاطئة رداً قوياً ومن شاء الزيادة في هذا الباب فليراجع ذلك الكتاب

ولم يكن الغزالي عالماً بالخطر الذي ينشأ عن تطرفهم هذا فقط بل كان يعلم ايضاً ان التطرف في التدين كثيراً ما أدّى الى الكفر ولذا قال :

«وصار احدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم انه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة او كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ... ولا يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله فظنوا انهم قد وصلوا الى الله فوقفوا وغلطوا فان لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق

الا ويظن انه قد وصل اليه وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول واول الحجب بين الله والعبد هو نفسه فانه هو ايضاً أمر رباني وهو نور من انوار الله تعالى . . . وهو في اول الامر محجوب بمشكات هي كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول — انا الحق — فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٨٥ و٢٨٦ و٢٨٧).

وزيادة على ذلك فقد زاد عدد التابعين للصوفية لان مجرد التهييج في الدين كان منظوراً اليه كدليل على الفكر المتوقد والتعمق الكثير — وتقسم الاحوال التي تنشأ عن المنظومات الشعرية الى اربع طبقات . الاولى منها وهي الاقل هي ما يشعر به الانسان من اللذة البسيطة التي تأتي من النظم . والثانية السرور من سماع النظم وفهم الكلمات على مظاهر مبناها . والثالثة تشمل اولئك الذين يطبقون معاني الكلمات على الصلات بين الله والانسان ويدخل تحت هذا النوع ما يمكن وصفه بانه اصل من اصول الصوفية كما قال الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال حيث قال :

«ثم اني لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت

ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثـة يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ... حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت على ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع وظهر لي ان أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ... وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب بالدنيا والتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ... والقدر الذي لا اذكره لينتفع به اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى » (المنقذ وجه ٢٧ الخ)

وفي موضع آخر يقارن الامام الغزالي هذا النوع من طهارة النفس الانسانية بمرآة لامعة — والامام طبعاً يقصد بالمرآة مرآة الاقدمين التي كانت تصنع في أيامه من نحاس أو برنز لامع — تعكس أي لون ينبسط عليها وهو يكرر المرة بعد الاخرى هـذا المجاز في كتبه — والخطية تشبه الصدأ على مرآة النفس فالنور ينعكس فيها ولكن الاشعة ليست مضيئة بل تستمر غير مضيئة حتى تمحو التوبة صدأ الخطية والشهوة

ان صوفية الغزالي كانت دائماً مصحوبة بتدقيق عظيم من جهته في وجوب اصول الايمان الستة والاركان الخمسة التي بواسطتها يمكن النفس المخلصة ان تحصل على الدافع الاساسي نحو الله — ومع ذلك فان الغزالي بعد ان تشبعت نفسه من قول المسيح في انجيله الطاهر الصحيح :

«احترزوا من ان تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم ... واما انت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية . ومتى صليت فلا تكن كالمرائين . . . واما انت فمتى صليت فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصل الى ابيك الذي في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية ... ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فانهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين ... واما انت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لابيك الذي يرى في الخفاء . فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية » (متى ٦: ٣—١٨)

وبعد ان عرف من تعاليم المسيح ان المهم في العبادة ليس القيام بالفروض الوقتية الظاهرة بل تسليم القلب والنفس الى الله والالتجاء اليه والاتصال به تمشت به صوفيته الى التدقيق في ضرورة العبادة الروحية لان مجرد تأدية الفرض بالشكل الظاهر لا معنى له في ذاته

ولا يفيد بمقدار العبادة الروحية . ولذلك أكد ضرورة الاقتداء بالله تعالى فقال :

«العلم بانه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكر ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر كمال لا محالة وليس ينقص فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع اسنى وأتم من الصانع ؟ — وهكذا استمر الامام في ذكر صفات الله وشرحها الى ان قال — ان الله تعالى عالم بعلم حي بحياة قادر بقدرة ومريد بارادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر وله هذه الاوصاف من هذه الصفات القديمة. وقول القائل عالم بلا علم كقوله غني بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم فإن المعلوم والعلم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قتل ولا قاتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض». (كتاب احياء علوم الدين جزء ١ وجه ٨١ و٨٢ تحت عنوان الركن الثاني)

وكان سعيد بن ابي الخير الذي عاش من سنة ٣٩٦ — سنة ٤٤٠ بعد الهجرة في خراسان ايضاً ممن يدرّسون علوم الغزالي في علم التصوف فسئل يوماً ما: ما هو الصوفي؟. فاجاب: «هذا هو الصوفي.

كل ما هو في رأسك انسه ، وكل ما في يدك اصرفه، وكل ما يحدث لك أعرض عنه ، الخ الخ»

واما من جهة رقي التعليم في علم التصوف وأصله وكنهه فقد ذكر الدكتور «ج. سنوك هرجروني» ان المصباح الذي قال محمد ان الله امره ان يرفعه ليهدي العالم الانساني بنوره قد اتسع الى درجة كبيرة بعد وفاة محمد ليضيء بنوره على عدد كبير من بني الانسان . ولكن ليس هذا في الامكان بدون تجديد ملء مخازنه من جميع انواع الزيوت التي اضاءت سبل كل بني الانسان من قديم الزمان في كل عصر ومصر . وعلى هذا فزيت الصوفيين لا منشأ له إلا الدائرة المسيحية كما انه لا يمكن الخطأ في القول باذ أصل زيت الصوفية ايضاً من الفلسفة الافلاطونية الجديدة وقد ادخل عليه ايضاً شيء من بلاد الفرس وشيء من بلاد الهند — وكان ايضاً اولئك الذين هم بطهارتهم وتقشفاتهم وطرقهم المختلفة في انكار الجسد وميوله قد حرروا الروح كي تصعد وتتحد مع أصل اصول الكون . وقد بلغت الدرجة بالبعض انهم عند تعليمهم عن الايمان طوحوا بانفسهم الى هاوية التجديف فيقول احدهم بلا مبالاة «انا الله» (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) الا ان الراوي يقول ايضاً : ولو ان الكثيرين ذهبوا الى هذا التطرف

والى هذه الافكار السخيفة من جهة الاشراك بالله، وذهبوا الى نسيان الشرع الادبي ومكارم الاخلاق الا ان الامام الغزالي نازلهم منازلة الابطال فهزمهم وانقذ الاسلام انقاذاً كبيراً من خطرهم فحبذ فكرة كمال النفس من الوجهة الادبية وعلّم ان طهارة النفس هي الطريق الوحيد للوصو الى المولى سبحانه وتعالى وأوضح ان صوفيته كانت ترمي الى خطر الاشراك بالله والكفر الذي وقع فيه كثيرون غيره من متهوسي الصوفيين بتخيلاتهم التي ادت بهم الى عدم الاكترات بالشرع الموحى به وبالآداب الفاضلة ايضاً. وربما لم يكن للامام الغزالي من دافع الى هذا الجهاد ضد الاشراك والفساد في طرق الصوفيين الا قول الفادي المجيد: «من الداخل من قلوب الناس تخرج الافكار الشريرة زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهارة، عين شريرة تجديف، كبرياء، جهل، جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الانسان» (مر ٧:٢١—٢٣) وقوله ايضاً له المجد: «تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الاولى العظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء» (مت ٢٢:٣٧—٤٠) لان الغزالي رأى تلك النجاسات وذلك الاشراك ضد الله الذي اوجب

الفادي عليه أن يحبه من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره ورأى ان اولئك الذين اوجب الفادي عليه ان يحبهم كنفسه ساقطون في ذلك الفخ فكان عليه ان يجاهد لتخليصهم واعادة نفوسهم الى الله ففعل ما فعل باخلاص تام لا نراه الا في المبشرين باسم الفادي المجيد في كل اجزاء الكون فأنقذ الصوفية من خطر الكفر وخطر الفساد في الحياة

انه لا مندوحة لنا عن القول ان الصوفية اكتسبت مركزها الادبي السامي في ايام الغزالي واندمجت بهمته مع الشرع نفسه ومن ذلك الحين تكون الثالوث العلمي الاسلامي الذي يدرس الآن في المعاهد الاسلامية الكبرى

واما من جهة علم الكلام فقد قال اعاظم المؤلفين ما هو اكثر من ذلك . قالوا : لاجل الحصول على الفقه الاسلامي يجب ان تقرأ كتب المذاهب الاربعة ولكن مؤلفات الغزالي مع ذلك لها المركز الاسمى في ما يختص بالآداب الاسلامية

ولنرجع مرة اخرى الي ايراد بعض اقوال «هرجروني» فانه قال: «ان آداب الغزالي الصوفية معترف بها على وجه عام كانها آداب اصيلة اسلسية ، وان احتمال الوصول الى درجة عالية روحية بواسطة انكار

النفس والتأمل أمر لا يشك فيه. وقد انتشرت بين المسلمين فكرة هذا نحواها: «ان الشرع الشريف يقدم الينا خبز الحياة نحن جميع المؤمنين وان علم الكلام هو السلاح الذي ندافع به عن كنوز الدين ضد الاشراك والكفر والزندقة ولكن الصوفية تنير الطريق المؤدي الى الله»

ان هذا التعليم مهم ولكنه خيب الآمال خيبة هائلة في موضوع واحد. ألا وهو ان صوفية هذا الامام (الغزالي) ليست لاجل الجميع لانها طريقة سامية لا يمكن أن يتبعها سوى فريق من خاصة القوم امتلأت نفوسهم من الترفع الديني وحب الانفصال عن العامة حتى اصبحوا ممتازين يخالفون غيرهم في كثير من القضايا الادبية والشرعية فأعلى الطبقات الاسلامية وأفضلها يقصرون الحياة الدينية الحقة على افراد قلائل ولو احسنوا لامتزجوا بجميع الطبقات وجاهدوا في رفع الجميع الى هـذا المستوى العالي حتى يصير نجاح الغزالي عاماً لا خاصاً وعلى ما يرام. ولكنهم بكل اسف كانوا يرون كما كان يرى قدماء الفريسيين ان اهمال اتباع الجماعة خطية لا تقبل التوبة عنها. وكانوا يرون ان تعاليم حجة الاسلام الغزالي لم يكن المقصود منها مجموع الامة الاسلامية كلها ولكن المقصود منها هم افراد قليلون بالنسبة الى

مجموع الامة . فان هذا من قول الفادي الحبيب : «تعالوا الي يا جميع المتعبين والثيلي الاحمال وانا اريحكم ؟ »

ومما هو خليق بالذكر اننا نرى الغزالي أسس للصوفية ركناً ركيناً في طوس ونشر تعاليمه فيها بقوة هائلة في ايام حياته ولكننا نرى من جهة اخرى انه لم يترك وراءه شيعة معروفة تحتفظ بتعاليمه وتدعو اليها — ويرى الاستاذ ماكدونالد انه في عصر الامام الغزالي لم تكن حركة تأسيس الجمعيات والاخوّة قد ابتدأت ولكن هذا الرأي خطأ لاننا نرى في كتاب كشف المحجوب المؤلف سنة ٤٥٦ هجرية بياناً عن فئآت الدراويش الكثيرة وعن طرقهم الخاصة في العبادة والاذكار وفوق ذلك نرى ايضاً ان تعاليم الغزالي صارت شائعة شيوعاً تاماً كاملاً بين الصوفيين هذه الايام وهذا ما نسر له لان الصوفية الحقة من الاسباب التي تحرض الانسان على الشعور بخطاياه وضرورة الخلاص منها

ولقد بحث القس الكنن جردنر بحثاً فائضاً في مؤلفات الغزالي عن الصوفيين وخصوصاً في كتاب «مشكاة الانوار» وقد أورد حضرته في بحثه هذا ردوداً هامة على الانتقادات التي وجهت الى هذا الكتاب ويلخص ما قاله في القول انه مهما كانت طرق الامام الغزالي

في التعليم فانه كان مخلصاً حميد القصد . وها نحن نورد لقرائنا في ما يلي فقرتين من ذلك البحث لنعطي لهم نموذجاً من طرق الغزالي وعند التعمق في تفسير الحديث الخاص بالسبعين الف حجاب التي حجب بها الله نفسه عن نظر العالم يجد الغزالي فرصة لمقارنة أديان وشيع كثيرة بصفة كونها محجوبة عن النور الواحدة اكثر من الاخرى وبحسب قربها لواحدة اكثر من الاخرى من مجرد الحقيقة الواحدة — اي من الله — وأما الحجب التي تحجب الاديان والشيع الكثيرة عن النور الالهي فقد ذكر انها نوعان حجب نور وحجب ظلام — وقاعدة ترتيب تلك الاديان هي بحسب ما اذا كان تابعوها وشيعها مقنَّعون : (اولاً) بحجب ظلام (ثانياً) بحجب ظلام وحجب نور مختلطين ممتزجين (ثالثاً) بحجب نور فقط . وينتهي الحديث بشرح قصيدة نتأكد به ان «الواصلين» اتبعوا الطريق الصوفية للكشف باجلى واكمل اشكاله . فاما اصحاب النوع الاول أي المقنَّعين بحجب الظلام فقط اولئك الذين لقبوا بلقب «ملحدين» فهم الذين ينكرون وجود الله واليوم الآخر ويقسمون الى قسمين قسم منهم بحث عن اسباب وجود العالم وأدّى به بحثه الى ان الطبيعة هي ذلك السبب . والقسم الثاني هم اولئك الذين لم يهتموا ببحث مثل هذا . فاما

اصحاب القسم الاول فهم الدهريون الذين يمكننا أن نلقبهم بعكس ما لقبهم به الغزالي الذي لم يذكر شيئاً مطلقاً عن اهوائهم واميالهم الحيوانية . ومن غريب الافكار عند متوسطي القوم ان اللعنة العظمى معدّة لمن يرى رأياً كاذباً لا لمن تكون حياته حياة شر وفسوق —واما فاعلو الشر فهم القسم الثاني وهم اولئك الذين حصلوا على اوفر قسط من الشره وحب الذات ولا يفكرون الا في الحصول على غاياتهم الشريرة وترتيبهم هكذا (١) الباحثون عن الذات الشهوانية (٢) الباحثون وراء العظمة (٣) الباحثون وراء المال (٤) الباحثون وراء المجد العالمي الكاذب — فاما الاولون فهم الذين لا يعبأون الا بالحياة كما قرر فلاسفة علم الاحساس . وحجب هؤلاء هي ذات الحجب المنسوبة الى الوحش . وأما الثانون فهم فئة المفترسين وقد لقبوا «بالسباعية» وقد ذكر منهم العرب والكرد وغيرهم من الجهلاء الكثيرين. واما الثالثون والرابعون فلا يحتاج امرهم الى شرح ولا تفسير

وأما اصحاب النوع الثاني أي المقنعين بحجب ظلام وحجب نور مختلطين ممتزجين فان رأي الغزالي في حجب الظلام على وجه عام يمكن معرفته من مقارنة هذا النوع بالنوع السابق—ففي هذا النوع ذكرت حجب الظلام بصفة كونها عبارة عن فهم اللاهوت فهماً

خطأ لقصر العقل الانساني في تركيبه أي نظراً الى احساسات العقل الانساني وتخيلاته التي لا اساس لها وذلك بخلاف الحجب الظلامية المذكورة في النوع الاول التي هي عبارة عن الماديات التي اتبعها اصحاب النوع الاول وهاموا بها بدون التفكر في الله الذي هو الحقيقة الواحدة مطلقاً . واما اصحاب النوع الثالث أي المقنعين بحجب نور فقط فحجبهم هي الوجهة الحقيقية الا انها جزئية فقط ولكن يمكن للانسان ان يرتفع بواسطتها الى درجة التأمل في اللاهوت او الى كل ما هو اسمى من نفسه ومن إدراكه على الاقل — وقد قلنا ان هذه الوجهة جزئية لانها لا تتعدى وجهة واحدة لاهوتية مثل الجمال والجلالة والعزة وما أشبه ذلك . واصحاب هذا النوع يعتقدون ان هذه الوجهة هي الكل في الكل وانها تجعل كل ما هو جميل او جليل او عزيز شبيها بالله وعلى هذا فانهم يظهرون شيئاً ويخفون آخر عن الله ولذا فقد سميت حجب نور .

وهذا يذكرنا بقول الرسول بولس : «لاننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض . لما كنت طفلاً كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت افتكر . ولكن لما صرت رجلاً ابطلت ما للطفل . فاننا ننظر

الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجها لوجه . الآن اعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت» (١ كو ١٣) وهنا يتأكد للقارئ الكريم بعد المقارنة بين قول الغزالي عن اصحاب حجب النور فقط وقول الرسول ان الغزالي أخذ جل تصوفه من مبادئ الانجيل المقدس لان رأي الغزالي هو صدى قول الرسول ومعناه بالتمام . والسابقون أولى بالاكرام.

ولقد قال الاستاذ مرجليوث[1] وامثاله ان التصوف الاسلامي مؤسس على التعاليم المسيحية وهذا القول حق بنوع خاص من جهة الاستاذ ابي طالب المكي صاحب (قوت القلوب) الذي عظمه ومدحه الامام الغزالي واحترمه احتراماً عظيماً في كتاباته في موضوع الصوفية. ونرى مقتطفات كثيرة واشارات عديدة الى الانجيل ليس فقط في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكي بل في جميع مؤلفات الامام الغزالي أيضاً كما سنرى في ما بعد في هذا الكتاب[2]

وقد وضع الغزالي نماذج أدعية خشوعية للصلوات الصباحية والمسائية لا تختلف كثيراً عن الادعية المذكورة في كتب الصلوات

(١) كتاب تطور الاسلام للاستاذ مرجليوث بجامعة اكسفورد

(٢) راجع الفصل الثامن والاخير من هذا الكتاب (حياة الغزالي).

العامة المسيحية (انظر كتاب الاحياء جزء ١ وجه ٢٢٠ الخ وكتاب الصلاة العامة للمسيحيين الاسقفيين وكتاب الادعية للاقباط الاورثوذكس) فاننا رأينا ان تعليم الغزالي في هذا الموضوع مجهود قصد به ان تكون الصلوات روحية كصلوات المسيحيين وهو لم يبتعد في هذا التعليم عن تعاليم الصوفيين القدماء . ولكي لا ينشغل الانسان بمنظور ما فقد نصحه الصوفيون ومنهم الغزالي ان يصلي امام حائط خال من كل زخرف خوفاً من رؤية كل ما يشغله من تفرغ القلب امام الله . وقد افتخر آخرون بانه يمكنهم الوصول الى تلك الدرجة من الالتفات مهما كانت الاحوال حتى قال الغزالي في ذلك :

«وكان الربيع يقول ما دخلت في صلاة قط فاهمني فيها الا ما أقول وما يقال لي . وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء ؟ قال نعم بوقوفي بين يدي الله عز وجل ومنصرفي الى احدى الدارين . قيل فهل تجد شيئاً مما نجد نحن من امور الدنيا ؟ قال لان تختلف الأسنة فيَّ احب اليَّ من أن اجد في صلاتي ما تجدون . وكان يقول لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . وقد كان مسلم بن يسار منهم وقد نقلنا انه لم يشعر بسقوط اسطوانة في المسجد وهو في الصلاة وتأكّل طرف من اطراف بعضهم واحتيج فيه الى القطع فلم يمكن

منه فقيل انه في الصلاة لا يحس بما يجرى عليه فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم الصلاة من الآخرة فاذا دخلت فيها خرجت من الدنيا » (الاحياء ج ١ وجه ١٢٥) الخ

ومع ذلك فان الغزالي كان يعتقد بضرورة الاحترام واكد وجوب الاستعداد الخارجي والداخلي للصلاة اقتداء بقول المسيح : «افعلوا هذه ولا تتركوا تلك» ولذلك قال : «وكان ابو الدرداء رضي الله عنه يقول : من فقه الرجل ان يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ (أي خال) وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس . وروي ان عمار بن يسار صلى صلاة فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان فقال هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا لا . قال اني بادرت سهو الشيطان» ثم أورد الشطر الآتي عن النبي فقال : قال رسول الله (ص) ان العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وكان (ص) يقول انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» (الاحياء ج ١ وجه ١٢٦) الخ الخ

ثم يبحث هذه الاشياء بان يبين ما تشمله وكيف تتأتى وكيف الحصول عليها وبان يبين انه يمكننا ان نتوصل الى احضار قلوبنا

بواسطة التعمق في الشعور . وما يقوله الامام عن الله يمكننا مقارنته بما جاء في المزمور الثامن والعدد الرابع وهو : «فمن هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده» ويقول الامام بالمبدإ الذي وضعه المسيح في متى ص ٦ في موضوع الصلاة فينهانا عن الصلاة في الشوارع العمومية لان افكارنا تكون متجهة الى اشياء اخرى ويحثنا على اخراج افكارنا عن جميع مشاغل العالم وهكذا الى ان أفهمنا ان القبلة الحقيقية هي صرف القلب الى الله (راجع الاحياء ج ١ وجه ١٢١)

وقد ذكر لنا تفسيراً روحياً جميلاً على سورة الفاتحة فقال :

«فاما القراءة فالناس فيها ثلاثة . رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل . ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات اصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه الى المعاني اولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب او يكون معلم القلب . والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعاني انك اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله — ... فلا جرم كان الحمد لله ومعناه أن الشكر لله الى آخره» احياء علوم الدين ج ١ وجه ٢٢ الخ

وقال الامام الغزالي في التصدق بالحسنات ان هناك سبعة امور

ضرورية وهي السرعة والكتمان والمثال . ثم أورد حديثاً نبوياً بان اليد اليسرى لاينبغي أن تعرف ما تعمله اليد اليمنى من الصدقات (ولا ريب ان هذا الحديث مقتبس بمعناه من بشارة متى ٦: ٤ فليس الغزالي وحده هو الذي اقتبس من الكتب المقدسة ولا شيخه ابو طالب المكي بل والنبي محمد نفسه ردد في العالم صوت الانجيل)

ثم عاد الى ذكر البقية فقال : وعدم الافتخار او الكبرياء وعدم التحدث بالصدقة وتقديم الصدقة من احسن الاشياء وأفضلها لان الله تعالى عال في الحسن ولا يحب ان يقدم اليه الا الاحسن وفرض ان الصدقة لا يجب ان تعطى الا لمن يستحقها. ثم ذكر من المستحقين ستة انواع فقال : هم — الاولياء — والعلماء — والصديقون — والفقراء المعوزون — والمصابون بالاحتياج لمرض او لفاجعة نزلت بهم — والاقارب (ولا ريب أن تعليم الغزالي هذا ظل لما اورده بولس الرسول في ١ تي ص ٥ في هـذا الموضوع) ولكن اتضح من تعاليم الغزالي انه لا يقول بالاخوّة العامة لانها ليست موجودة في الاسلام فان اليهود والمسيحيين في نظر الاخوة الاسلامية خوارج عن الحظيرة الا في ما يختص بحقوق الجوار فقط . واما الاخوة عندهم فهي خاصة تقريباً

ويمكن إن يفهم المسيحيون طريقة الغزالي الصوفية في قراءة القرآن من مطالعة المسيحيين الكتاب المقدس. ومن جهة قراءة القرآن قال لنا الغزالي بوجوب ملاحظة ثمانية اشياء وهي: فهم عظمة الكلام — التعظيم للمتكلم — حضور القلب — التدبر — التفهم — التخلي عن موانع الفهم — التخصيص اي على انفسنا — التأثر اي اننا يجب ان نقرأه بكيفية تجعل تأثيره ظاهراً في حياتنا — وقد قال لنا الغزالي ان المقصود من تلاوة القرآن هو تفهمه وتدبره والفرح في ما يفرح والحزن في ما يحزن الخ (الاحياء ج ١ وجه ١٩٩ الخ)

وان اكبر فصوله في كتاب الاحياء الذي هو اعظم مؤلفاته هو البحث في التوبة ويمكن مقارنة تعليمه عن التوبة بما جاء في المزمور ٥١ او بما جاء في الفصل السابع من الرسالة الى اهل رومية . ولا يمكن الشك في ان ذات الامام الغزالي كان متعمقاً في معرفة فظاعة الذنوب . ولم يكن من علماء الشرع المتمسكين بالظواهر الخارجية فقط اي لم يكن فريسياً بل كان باحثاً بجد واهتمام سالكاً نحو الله . وكان يعلم ان كل بني آدم خطاة حتى الانبياء منهم ولكنه لم يذكر خطية واحدة لسيدنا المسيح ، فهو الرجل العصامي الذي كان يجاهر بما يعتقد باخلاص تام

وأهمُّ ما أتى به عن فوائد طلب المغفرة وفوائد التوبة ما يأتي :—

قال صلى الله عليه وسلم . «للهُ افرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في ارض دويةٍ مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش او ما شاء الله قال ارجع الى مكاني الذي كنت فيه فانام حتى اموت فنام فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى اشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» الاحياء ج ٤ وجه ٤) ثم استمر في موضوعه عن التوبة الى ان قال : قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك اكرمه الله تعالى بأن قال له ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. واذا كان حاله هذا فكيف حال غيره؟» (الاحياء ج ٤ وجه ٨)

فما اعظم الفرق بين تعاليم الغزالي التي اوضحت ان جميع البشر خطاة بدون استثناء حتى النبي محمد الذي يحسبه الغزالي سيد البشر لم يخل من الخطايا بدليل اعترافه انه ليغان على قلبه حتى يستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة والذي صرح القرآن في اول سورة الفتح ان له ذنوباً متقدمة وذنوباً متأخرة ، وبين التعاليم السطحية التعصبية

المنتشرة في يومنا هذا عن عصمة الانبياء من الذنوب (بلا ادنى دليل) وهذه فكرة سادت على قلوب جميع المسلمين في الوقت الحاضر مع انهم يقرأون تصريحات القرآن والاحاديث بخطايا الانبياء وجميع الناس قاطبة بدون استثناء ولسنا ندري لماذا لا ينتبهون

وبما ان الامام الغزالي ذكر هذا عن محمد نبيه وعن احتياجه الى التوبة ومغفرة الله بكل صراحة فهو بالطبيعة قد بحث موضوع التوبة بحثاً دقيقاً بصفة كونه شخصاً مسلماً صادقاً ذاق مرارة تبكيت الضمير واكتشف حقيقة عدم اقتداره على القيام بمطاليب الشريعة الادبية ككل بشر خاطئ له ضمير يشعر بما عليه من الواجبات نحو الله

وامامنا الآن ملخص بسيط من تعاليمه التي اقتبسها من القرآن ومع ذلك فقد أوّلها تأويلاً أسمى روحانية واعظم جداً بما لا يقف عند حد . وهذه التأويلات السامية في حقيقة الامر انتقاد مُرّ في قالب الايجاب موجه من الامام الى القصيري النظر ولكنه انتقاد عملي له تأثير الانتقاد القولي اكثر من عشرة اضعاف حتى ان الشرح كثيراً ما يكون أسمى من المتن روحياً وهذا أمر عجيب

ان ضرورة التوبة امر لا يحتاج الى دليل لان جميع أبناء البشر أخطأوا واعوزهم مجد الله وفي هذه الحقيقة قال الامام الغزالي :

« هذه النفس جديرة بان تكون هي النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ما استهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد . . وهي اغلب احوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما ان تخلو بالكلية كفة السيئآت فذلك غاية العبد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال تعالى : الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة . فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفوِّ عنه . قال تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فاثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم في ما رواه عن علي كرم الله وجهه — أخياركم كل مفتن تواب — وفي خبر آخر : المؤمن كالسنبلة يفيء احياناً ويميل احياناً . وفي الخبر : لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين . فكل ذلك أدلة قاطعة على ان هـذا القرار لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين (فهو) كالطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والاطعمة الحارة مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه على نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في اوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارنة

السيئآت المختطفات . قال النبي صلى الله عليه وسلم : كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون» (الاحياء ج ٤ وجه ٣٢ و٣٣)

وكل هذا تقصير نحو الحصول على الكمال وله اسبابه ولكن اذا بحث الانسان عن هذا التناسي واشتغل بالفضائل المضادة لهذه النقائص فان هذا يكون رجوعاً الى الصراط السوي

ان اهمية التوبة هي في الرجوع عن الذنوب ولا يمكن ان يتصور العقل خلو أحد في الوجود من هذا النقص لاننا نختلف في الدرجات فقط ولكن بذور الشر موجودة فينا سواء أكنا ابراراً ام اشراراً، انبياء أم اشقياء. ولكون الامام الغزالي مسلماً بطبيعة الحال فهو ربما تجاهل الخطية الاصلية ولكنه مع ذلك يعظم تأثير الخطية التي لم تحصل توبة لها لانها تنزل من عميق الى اعمق في القلب حتى ان البقية الباقية من مثال التأملات في الله الكائنة في مرآة النفس الانسانية تمحى محواً كلياً وتنقطع اشعة الافتكار في الله .

وقد أورد تفسيراً آخر مثّل فيه القلب الانساني برداء نقي جميل جره لابسه في القذارة والنجاسة فاحتاج الى الغسل الجيد بالصابون والماء الساخن ليعود الى نقاوته الاصلية مرة أخرى فقال مفسراً:—

«فمن يتوهم أن التوبة لا تصح ولا تقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع

والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا ان يغوص الوسخ لطول تراكه في تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك ان تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً ورينا على القلب فمثل هـذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم قد يقول باللسان «تبت» فيكون ذلك كقول القصار بلسانه « قد غسلت الثوب » وذلك لا ينظف أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة» (احياء ج ٤ وجه ١١)

ان هذا التفسير فيه شيءٌ بعيد جداً عن تعاليم الكتاب المقدس وشيءٌ قريب منها . فما ابعده وما اقربه في وقت واحد !! . فاما ابتعاده فلانه جعل الذنب كالنجاسة تلصق بالثوب فقط وجعل التوبة كالصابون والماء للتطهير والتنظيف مع العلم ان الثوب يتسخ وينظف بالغسل في العام الواحد نحو ٣٠ مرة على الاقل وهـذا التعليم بعيد جداً عن مبادئ الكتاب المقدس الشريفة لانه يفتح باب الشر على مصراعيه للمذنبين فيذهبون الى ارتكاب الذنب وينطقون بالفاظ التوبة والاستغفار بعد الارتكاب ويظنون ان ذنوبهم غفرت بمجرد اخراج الالفاظ من شفاههم . واذا اردنا ايقاع اللوم كله على رأس هذا الامام فقد ظلمناه لانه لم يكن مبتدعاً لهذا التعليم بل بصفة كونه «سلماً غيوراً يرتل كل يوم «ان الحسنات يذهبن السيئات» و «من جاء بالحسنة فله

عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها» ويتلو «الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً — الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً» . وليس ذلك فقط بل عزز تعليمه هذا ايضاً بالاحاديث النبوية الآتية : قال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها. وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل . وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم . وقال (ص) ايضاً ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة . وقال ايضاً كفارة الذنب الندامة . الخ . الخ . فكل هـذه الآيات والاحاديث كانت من أقوى البواعث لابتعاد تعاليم الغزالي عن مبادئ الكتاب المقدس في موضوع التوبة . واين هذا المبدأ من قول الكتاب المقدس : «من حفظ كل الناموس وانما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل ؟» (يع ٢ : ١٠) ولنا عظيم الرجاء بانتصار كل مبدإ شريف . واما اقترابه من تعاليم الكتاب المقدس فلانه نقض النظرية الاولى بروحانيته الشخصية التي فاقت سمواً عن الوسط الذي كان فيه وقال بان تكرار لفظ التوبة لا يفيد أصلاً ما لم

يستعمل ما يضاد الخطية بالتمام . وهذا أبان لنا ان روحانية شخص الغزالي تستوي مع مصدر ايمانه ان لم تكن أعلى كما هو الظاهر من هذه المقابلات

ان التوبة الحقة لها نتيجة مزدوجة حسب تعاليم هذا الفقيه المسلم ولو انه وقف على الشاطئ ولم يدخل بحر هذا الموضوع العميق ولم يتأمل كيف يكون الله عادلاً لا يترك حقوقه وكيف يعفو عن الخاطئ بموجب الفاظ يقولها بلسانه فقط الا ان هذا الامام يعلم يقيناً ان نتائج مغفرة خطايانا هي اننا نقف امام الله مبررين كأننا بلاخطيئة

ان دائرة أفق نظرية الغزالي في موضوع التوبة الصادقة التي لا رجوع فيها لا بأس بها الا ان سلسلة تعليمه فقدت منها الحلقة الرئيسية الهامة وهذه الحلقة التي فقدت من سلسلة عقيدة الغزالي انما هي «الفداء الذي تم بصليب المسيح فجمع بين عدل الله ورحمته أي بين قداسته ومحبته لان الله لا يقيم عدله الا وهو رحيم ولا يقيم رحمته الا وهو عادل ولم يتم التوفيق بين هاتين الصفتين الالهيتين الا بصليب المسيح» (راجع يو ١:١٧)

ان كل توبة ليست مبنية على الاعتقاد بصليب المسيح لهي وهمية لا فائدة منها

ان الغزالي كان يقترب دائمـاً بروحانيته من التعاليم المسيحية الشريفة ولكنه كان دائماً يحوم حول جوهرها ولا يمسه. كان بالحقيقة هائماً بصوفيته نحو النور ولكنه لم يمسك بيد الصديق الفادي فلم يجد من يفديه . وصل باجتهاده الى معرفة الله ولكن مسبحة التوبة لم توصله الى الله تماماً لانه لم يعترف بالمسـيح واياه مصلوباً ولم يصغ لصوت القائل : «انا هو الطريق والحق والحياة ليس احد يأتي الى الآب الا بي» (يو ١٤ : ٦) وفوق هـذا فان تعاليم الغزالي عن وجود الله في بداية الهداية وجه ٤٠ و ٤١ تشبه تعاليم الاخ لورانس اللاهوتية

اننا عند ما رأينا الغزالي يتكلم عن الحجب التي تحجب حقيقة الله حضرت الى ذاكرتنا الاسباب الشعرية التي أوردها (هويت هيد) في موضوع اليوم الثاني من أيام الخليقة الستة التي نرى فيها ملك الملوك ورب الارباب من خلايا القبة الزرقاء ولكن مما احزن قلوبنا جداً ان الغزالي لم يعرف اقتراب الله نفسه الى البشر بتجسد المسيح اعلاناً لمحبته واتماماً للكفارة فاكثر من الكلام عن خوف الله تعالى وعلّم ان الخوف من الله عن رهبة لا عن رغبة واستدل بقول القرآن «وهدى ورحمةً للذين هم لربهم يرهبون» ثم استطرد الى ذكر

حديث نبويّ اقتبس النبي معناه من سفر الامثال ٩ : ١٠ ومن المزمور ١١١ : ١٠ وهو «رأس الحكمة مخافة الله» ومن شاء الوقوف على اطنابه في الخوف من الله والرهبة والخشية الى درجة تنزع الاطمئنان من القلب وتقضي على كل أمل بالاتصال مع الله فليراجع (الاحياء ج ٤ وجه ١١٦ و١١٧ الخ). وفوق خوفه من الله بهذا الشكل المؤيس فاننا نرى انه كان أيضاً يخاف من الموت لان رأسه امتلأت من سماع أهوال الموت من أبناء العصور الوسطى ومن أيام صدور الاسلام ومما قرأه في كثير من سور القرآن مثل ق والذاريات والمرسلات وغيرها وغيرها ومن كثرة خوفه من الموت ألف كتاباً صغيراً في أواخر أيامه ودعاه «كتاب الدرة الفاخرة في الكشف عن علوم الدنيا والآخرة» صور فيه الموت ويوم القيامة بكل انواع المخاوف والاضطراب فقال :

« واما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفاً فاذا وجهه كآكل الحنظل والملك (بفتح اللام) يقول اخرجي ايتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فاذا له صراخ اعظم ما يكون كصراخ الحمير فاذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتني الريح بايديهم مسوح من شعر فيلفونها فيه فتستحيل شخصاً انسانياً على قدر الجرادة فان الكافر اعظم جرماً من المؤمن (يعني الجسم في الآخرة) وفي الصحيح ان ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد. قال فيعرج

به حتى ينتهي به الى باب سماء الدنيا فيقرع الامين الباب فيقال من أنت فيقول انا قابيل فيقال له من معك فيقول فلان ابن فلان بقبيح اسمائه وأبغضها اليه في دار الدنيا فيقال لا أهلاً ولا سهلاً ولا يفتح له ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فاذا سمع الامين هـذه المقالة طرحه من يده فتهوي به الريح الى مكان سحيق أي بعيد . . . فاذا انتهى الى الارض ابتدرته الزبانية وسارت به الى سجين وهي صخرة عظيمة تأوي اليها ارواح الفجار . الخ» (الدرة الفاخرة وجه ٨)

ولقد قال الاستاذ كلوزفيلد في ملخصه عن الصفات الصوفية في الغزالي ما يأتي :

« كما ان القديس اوغسطينوس وجد خلاصاً من الشكوك والخطإ من جهة معرفة الله في داخل نفسه ، وكما ان (دي كارت) وجد نفس هذه الحقيقـة ايضاً لراحة ضميره ، فكذلك الغزالي وجد نفسـه غير مرتاح ولا مطمئن وغير مقتنع بالمناظرات العقيمة فتعبد متتبعاً المبادىء الصوفية وسلم نفسه الى الله بمقدار معرفته اياه وترك الآخرين يتناظرون بشأن وجود الله من ظواهر هذا العالم لانه عرف بوجود الله وآمن به وأسلم نفسه اليه بمقدار ما تحتمل مبادئه وطبيعته البشرية »

وكان الامام ظاهراً على غيره من العلماء مشهوراً في العالم الاسلامي ولكن لم يفهم عن شخصيته الى يومنا هذا الا القدر اليسير ولكن في القرون الوسطى تغلب صيت أفروس على صيت الغزالي.

وقد ذكر «دانتي» التفسير الذي عمله أفروس عن ارسطوطاليس وشرحه عن توماس اكيناس ومن ذهب مذهبه

ان افروس كان قد اتم طريقته واستكملها واما الغزالي فكان واحداً من اولئك الذين يمكن الوصف بانهم يصلون الى ابعد مما تؤهلهم له معلوماتهم لانه كان دائماً يتطلع الى شيء لم يكن قد وصل اليه وكان في كثير من الاحوال اقرب الى الحضارة من افروس — وقال «رينان» ان عقل الغزالي كان اكثر عصامية من فلاسفة العرب ولو ان رينان هـذا كان بعيداً عن الاشتراك مع الغزالي في ما كان يشعر به هذا من قيمة الاهتمام بالامور الدينية

ان الذي يتبع تعاليم الغزالي بمبناها ومعناها من المسلمين يصير اقرب مسلم الى مبادئ الانجيل الشريف لان استفادة الغزالي من الكتب المقدسة ظاهرة في مواضع كثيرة من مؤلفاته ظهور الشمس في رائعة نهار الصيف. ولنا امل وطيد اننا بمقارنة تعاليمه بتعاليم المسيحية نكون قد قدمنا الى القراء استاذاً مسلماً صوفياً مخلصاً يرشدهم الى المسيح . وانه ليجدر بالمتعلمين المسلمين العصريين ان يأخذوا بقول استاذهم وامامهم الاكبر حجة الاسلام الغزالي وهو :—

«واما السبب الرابع وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء فتداوي

هذا المرض بثلاثة أمور (احدها) ان تقول له ان العالم الذي تزعم انه يأ كل الحرام معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة وانت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم ايمانك بانه معصية بل لشهوتك الغالبة عليك فشهوته كشهوتك وقد غلبته كما غلبتك فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ولا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفا كهة وعن الماء البارد وان زجره الطبيب عنه ولا يدل ذلك على انه غير ضار أو على ان الايمان بالطب غير صحيح فهذا محمل هفوة العلماء (الثاني) ان يقال للعامي ينبغي ان تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ويظن ان علمه ينجيه ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في اعماله لفضيلة علمه وان جاز ان يكون زيادة حجة عليه فهو يجوز ان يكون زيادة درجة له وهو ممكن فهو وان ترك العمل يدلي بالعلم . أما انت ايها العامي اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك (الثالث) وهو الحقيقة ان العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً اذ العلم الحقيقي ما يعرف ان المعصية سم مهلك وان الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو ادنى . وهذا العلم لا يحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جراءة على معصية الله تعالى واما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدل على ضعف

الايمان فالمؤمن مفتن تواب ، وهو بعيد عن الاصرار والا كباب » (المنقذ من الضلال وجه ٤٧ و٤٨)

وبما ان الغزالي كان مسلماً فليس لنا الا ان نقول : اما انه كان متكبراً الى درجة منعته عن البحث في الحقائق التاريخية الصريحة عن الدين المسيحي — واما انه لم تكن له الفرص الكافية لهذا البحث فضلاً عما كان يورده من آيات الانجيل واحكامه سواء أكان ايراده صحيحاً ام مغلوطاً . فلو انكر نفسه ايضاً او لو اتيحت له الفرصة وبحث بلا خوف من القرناء والانداد لكان قد وجد في الانجيل ما كان يتعطش اليه قلبه وما كان يملأ له احتياج نفسه ويحصله على اشتياقها — فليته رأى الله في الشخص الحي (وليس في عقائد وقواعد غير ماموسة) وهذا الشخص الحي الذي ظهر الله فيه لجميع العالم لكل من يؤمن موجود وهو هو امساً واليوم والى الابد — وهو هو يسوع المسيح «الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة فانه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الارض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين الكل به وله قد خلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كولوسي ١ : ١٥ — ١٧)

ان الذين يقومون ويقيمون في المسيح ويقيم هو فيهم قد حسبوا جزءاً من جسمه الروحي فهم اغصان حية من تلك الكرمة الحية وهم جميعهم واحد في الحياة التي في المسيح يسوع ولو كانوا دائماً شاعرين بوجودهم الشخصي كافراد — هؤلاء يستمرون في السلوك الروحي اللائق تدريجاً الى ان يتصلوا بالله تماماً ويصيروا في شركة معه وهذا شيء لم يصل اليه فهم الصوفي الى الآن

لقد صرح الغزالي انه لا يوجد شخص رأى الله ولم يوجد في وقت من الاوقات وذلك لانه لم يعرف أو خاف ان يعرف ان ابن الله الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر واعلن لنا ان الذي رآه فقد رأى الله (راجع يوحنا ١:١٤—١٣)

ان المجد الصناعي (المخترع) الذي قال العوام انه كان للنبي كان حاجزاً للغزالي (كما حجز غيره من اتباعه من صدر الاسلام الى الآن) عن الحصول على نور معرفة مجد الله في وجه ابنه المبارك الوحيد يسوع المسيح . ولكن لم يكن حاجزاً له الى الدرجة النهائية كما سنرى في الفصل الآتي . ولكن مهما صنعوا واخترعوا من الوسائل فان نور الله (وان قامت جبال الارض وامواج البحار لاخفائه) لا بد ان يظهر

١

ويعلو ويثبت وينير كل انسان يطلب النور في هـذا العالم «ثم كلمهم يسوع قائلاً : انا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يوحنا ٨:٢ و١:٤ و٥)

«ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الـ .....»

الفصل الثامن

يسوع المسيح فى الغزالي

ان يسوع المسيح هو حجر محك الاخلاق وسيد كل الناس والقاضي العظيم المعصوم من الخطإ الذي يقدر أن يبدي حكماً صائباً عن اي نظام او تعليم ديني دون ان يعتور حكمه خطأ او خطل. فما هو مقام يسوع في تعاليم اعظم أئمة المسلمين وحجة الاسلام العظيم والصوفي الباحث عن الله والمخلص في بحثه والراغب من كل قلبه ان يجد الله ويتعرف به؟ ولا مشاحة ان الغزالي بصفة كونه مسلماً غيوراً قد درس القرآن درساً حقيقياً واطلع فيه على المقام الرفيع الذي يعطيه للسيد المسيح لا سيما ما جاء عنه من الوصف المقرون بالتعظيم في سورة آل عمران وسورة المائدة وسورة مريم . وما دعيت تلك السور بهذه الاسماء الا لما جاء فيها من الاشارات الواضحة الى سيدنا يسوع المسيح واعماله . وان ذكر المسيح في الكتب الاسلامية واعتراف المسلمين به يدعونا الى المقابلة بينه وبين نبي الاسلام . فهل خطرت هذه المسألة ببال الغزالي حجة الاسلام ؟ وهل قابل بين المسيح ومحمد باعتبار انه درس الانجيل ايضاً ؟ وللاجابة على هذا السؤال عقدنا هذا

الفصل بعد أن جمعنا اغلب ما جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي وبعض كتبه الاخرى من الاشارات الى المسيح وتعاليمه واعماله . وتركنا الحكم للقارئ ليرى بنفسه الى اية درجة كان الغزالي في كتاباته عن المسيح كمعلم مرشد يقود قراءه الى المسيح (ولو لم يكن قاصداً هذا المقصد)

وعبثاً نبحث في كل مؤلفات الغزالي عن تاريخ حياة المسيح او عن خلاصة تعاليمه . ذلك لان الغزالي قرأ ولا شك الكتاب المشهور في وقته والحاوي سلسلة قصص عن حياة يسوع المسيح حسب المصادر الاسلامية المعنون بكتاب قصص الانبياء للثعلبي وقد بينت عدم صحة هذه القصص الخرافية في كتابي (عيسى ام يسوع) فليراجع هناك . وانصافاً للغزالي نقول هنا انه لم يكتف بهذه القصص الخرافية الملفقة التي جمعها الثعالبي بل ذكر عدة حوادث وأقوال للمسيح تشابه بعض المشابهة ما ورد في الانجيل

وهنا يخطر ببالنا سؤال مهم وهو من اين حصل الغزالي على معرفة ما جاء بالانجيل ؟ فهل وصلت الى يده نسخة للبشائر بالفارسية او بالعربية . او وصلت اليه كل المواد التي جمعناها من مؤلفاته بالسماع فجمعها من افواه الرهبان والربيين اليهود ؟ ومما لا ريب فيه انه قد

اطلع على ترجمة عربية للعهد القديم كما كان له اطلاع على ترجمة العهد الجديد لانه يستدل باقوال كثيرة من تعاليم موسى ومزامير داود وتواريخ انبياء العهد القديم . وثابت تاريخياً ان العهد القديم ترجم الى اللغة العربية قبل ايام الغزالي كما اشرنا الى ذلك في سياق الكلام في كتابنا هذا. وجاء في الحديث ان أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية للصحابة ويترجمونها لهم الى العربية . وجاء في حديث آخر ان كعب الاحبار اتى بكتاب لامير المؤمنين عمر وقال له هذه هي التوراة فاقرأها . وتجد كثيرين من مؤرخي العرب مثل الطبري والمسعودي وحمزة وبيروني يذكرون في كتبهم اموراً كثيرة من تاريخ اليهود القديم تشابه بعض المشابهة ما جاء في الكتاب المقدس. ويقول ابن قتيبة المؤرخ الذي مات سنة ٨٨٩ « انه قرأ التوراة وقد عني بجمع بعض الآيات الكتابية في مؤلف قد حافظ عليه ابن الجوزي الذي عاش في القرن الثاني عشر »

ومعلوم ان اول ترجمة للكتاب الى اللغة العربية مشهورة ومعروفة هي ترجمة السعدي وكان تأثير هذه الترجمة عظيماً ولها شهرة كشهرة مؤلفاته الفلسفية

ثم ترجم المزامير في القرن العاشر حافظ الكوتي ويستدل من

لهجته وبعض الامور الاخرى ان الرجل كان مسيحياً وفي اواسط القرن الحادي عشر ترجم اليهود في مدينة مصر العهد القديم الى اللغة العربية

اما عن ترجمة الانجيل الى اللغة العربية فيقول الدكتور كيلعور «ان اقدم نسخة للعهد الجديد في اللغة العربية هي على الارجح النسخة الخطية للبشائر الاربع والاربع عشرة رسالة التي كتبها بولس وهذه الترجمة وجدت في دير مار سابا بقرب القدس الشريف . ويعتقد الباحثون ان تاريخها يرجع الى القرن الثامن . ثم وجدت رسائل بولس بين ذخائر دير القديسة كاترينا بطور سيناء . وهذه يرجع تاريخها الى القرن التاسع . وقد جمعت مخطوطات اخرى من ذلك الدير يرجع تاريخها الى القرن التاسع ايضاً فكان من مجموعها العهد الجديد كله . وهكذا نجد انه في آخر القرن التاسع كان العهد الجديد كله مترجماً الى اللغة العربية . وتوجد نسخة منه الآن وجدت بين ذخائر دير القديسة كاترينا بطور سيناء ومحفوظة بمدينة بتروغراد عاصمة بلاد الروس . ومعها ايضاً رسائل بولس مؤرخة سنة ٨٩٢ م . أما المخطوطات في في ذات اللغتين السريانية والعربية فعديدة جداً منها بعض أوراق من البشائر الاربع محفوظة في المتحف البريطاني وهي نموذج جميل للكتابة ذات اللغتين وقد احضرها تشندورف من دير القديسة مريم

ديبارا السرياني في وادي النطرون بمصر . وفي اول القرن الحادي عشر قام عالم عربي وترجم كتاب اتفاق البشيرين تأليف تاتيان المسمى دياطاسارون الذي ساعد الكنيسة المسيحية الاولى كثيراً على ادراك الحقائق الجوهرية في حياة مخلصنا

أفليس اذاً من المحتمل بل من المؤكد تقريباً أن الغزالي كان مطلعاً على احدى هذه التراجم ؟ الم يقل هو نفسه «قرأت في الانجيل ؟ » هذا واننا نجده لا يكتفي بمجرد تلخيص اقوال المسيح واعماله بل في احوال كثيرة نجده يأتي بالنص الانجيلي كما هو . نعم لا ننكر انه خلط ذلك ببعض قصص واقوال ملفقة ليست من الانجيل في شيء ولكننا للآن لم نعرف وربما لا يُعرف المصدر الذي استقى منه الغزالي تلك الاقوال الملفقة . وهل يجوز أن نظن انه وضعها كما وضع كثيرون من اهل عصره قصصاً وأقوالاً عن «النبي» ؟

فقد جاء في كتاب احياء العلوم طبعة المطبعة العامرة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٦ هجرية كلام عن حياة المسيح على الارض كنبي وقديس لا اصل له في الانجيل منه :

(١) الكلام عن عصمته بشهادة الغزالي نفسه . قال في الاحياء جز ٣ وجه ٢٣ سطر ١٨ «روي ان ابليس لعنه الله تمثل لعيسى بن

مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا اله الا الله . فقال كلمة حق ولا اقولها بقولك»

وجاء في الجزء ذاته وجه ٢٦ سطر ٤ «قوله روي انه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام اتت الشياطين ابليس فقالوا اصبحت الاصنام وقد نكست رؤوسها. فقال هذا حادث قد حدث. مكانكم. فطار حتى اتى خافقي الارض فلم يجد شيئاً ثم وجد عيسى عليه السلام قد وُلد واذا الملائكة حافين به فرجع اليهم فقال ان نبياً قد ولد البارحة ما حملت انثى قط ولا وضعت الا وانا حاضرها الا هذا فأيسوا من أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة»

ومن الادلة على المقام الاسمى الذي لربنا يسوع ما جاء في جزء ٤ وجه ٢٤٥ سطر ٢٧ قوله «قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض . . . فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه فقال « والسلام عليّ يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً »

ثم ان الغزالي يلقب يسوع بذات الالقاب المعطاة له في القرآن فيقول عنه بن مريم وروح الله وكلمة الله ونبي ورسول ولكن هذين اللقبين لا يعطيان له امتيازاً عظيماً عن غيره في فكر المسلم لان المسلمين يقولون ان عدد الانبياء من بدء العالم ليس اقل من ١٢٤٠٠٠

نبي (كما جاء في الوجيز) وافرد الغزلي في كتاب الاقتصاد جزءاً مهماً من وجه ٨٣ — ٨٦ برهن فيه لليهود ان يسوع كان حقاً نبياً مؤيداً براهينه بتعاليمه السماوية ومعجزاته

وجاء في الاحياء جزء ٣ وجه ٦١ سطر ٣٢ عن صوم المسيح ما نصه «روي ان عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأ كل والحقيقة انها اربعون»[1]

وجا في الاحياء جزء ٢ وجه ٢١٧ سطر ٢٣

« روي ان عيسى عليه السلام خرج يستقي فلما ضجروا قال لهم عيسى من اصاب منكم ذنباً فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المغارة الا واحد فقال له عيسى أما لك من ذنب ؟ فقال والله ما علمت من شيء غير اني كنت ذات يوم اصلي فمرت بي امرأة فنظرت اليها بعيني هذه فلما جاوزتني ادخلت اصبعي في عيني فانتزعتها

وهذا القول مبني على ما جاء في انجيل متى ٥: ٢٧ - ٣٠

«قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن واما انا فاقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك . لانه خير لك ان يهلك احد اعضائك ولا يهلك جسدك كله في جهنم. وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها والقها عنك . لانه خير لك ان يهلك احد اعضائك ولا يلقى

(١) راجعوا قصة تجربة المسيح وصومه في الانجيل كما في متى ٤: ١ — ١١ ولوقا ٤: ١ — ١٣ تروا ان مدة صيام المسيح كانت ٤٠ يوماً و ٤٠ ليلة . اه «المصحح»

واتبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى اؤمن بم دعائك قال فدعا فتجلت السماء سحاباً ثم صبت فسقوا» | جسدك كله في جهنم»

ثم ان الغزالي تكلم عن معجزات المسيح فقال في جزء ٣ وجه ١٦١ سطر ٢٤ «قال الحواريون لعيسى مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك . فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندكم . قالوا حسنة . قال ولكنهما والمدر عندي سواء»

وجاء في جزء ٤ وجه ٧١ سطر ٢٤ «قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء . فقال صلى الله عليه وسلم لو ازدادوا يقيناً لمشى على الهواء»

وجاء في جزء ٤ وجه ٢٥٠ سطر ١٢ «يروى ان عيسى عليه السلام مر برجل اعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول . الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه فقال له عيسى . يا هذا اي شيء أراه من البلاء مصروفاً عنك ؟ فقال يا روح الله انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته . فقال له صدقت هات يدك . فناوله يده فاذا هو احسن الناس

وجهاً وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه (بل له لانه هو الشافي بامره)

وذكر الغزالي في باب ذم الغنى ومدح الفقر في جزء ٣ وجه ١٨٨ سطر ٢١

«روي عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال اكون معك واصحبك فانطلقا فانتهيا الى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة ارغفة فاكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام الى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من اخذ الرغيف . فقال لا ادري . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفتان لها قال فدعا احدهما فاتاه فذبحه فاشتوى منه فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف قم باذن الله فقام . فقال للرجل اسألك بالذي اراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا ادري . فانتهيا الى مغارة فجلسا فاخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال كن ذهباً باذن الله تعالى فصار ذهباً فقسمه ثلاثة اثلاث ثم قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال انا الذي اخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام»

ثم ان الغزالي يصف يسوع باللطف في الحديث والرقة في الخطاب والدماثة في الاخلاق فقال عنه في جزء ٣ وجه ٨٧ سطر ٦

«روي ان عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال «مُرَّ بسلام» فقيل

ياروح الله أتقول هذا لخنزير ؟ فقال اكره ان اعوّد لساني على الشر»

وجاء في كتاب اللآلئ الثمينة للغزالي

« اعتبروا بعيسى المسيح عليه السلام فقد قيل عنه انه لا يملك الا ثوباً واحداً لبسه عشرين سنة ولم يأخذ معه في كل سياحاته الا كوزاً وسبحة ومشطاً وذات يوم رأى رجلاً يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانية ثم رأى رجلاً يمشط لحيته باصابعه فطرح المشط ولم يستعمله ثانية . وكان يقول دائماً حصاني قدماي وبيوتي مغائر الارض وطعامي خضرتها وشرابي من ماء انهارها ومقري بين بني آدم»

وفي جزء ٣ من الاحياء وجه ١٠٠ سطر ٩

«قال مالك مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما انتن ريح هذا الكلب . فقال عليه السلام ما اشد بياض اسنانه كأنه نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على انه لا يذكر شيء من خلق الله الا احسنه »

وجاء في جزء ٤ وجه ١٤٠ سطر ١٠

« روي ان المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فايقظه وقال له يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد مني اني قد تركت الدنيا لاهلها . فقال فنم اذاً يا حبيبي »

وجاء في جزء ٤ وجه ٢٥٨ سطر ١٦

« اوحى الله الى عيسى عليه السلام اذا اطلعت على سر عبد فلم اجد

فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحظي »

وجاء في كتاب كيمياء السعادة للغزالي اشارتان الى هذا الموضوع ويظهر لنا ان الغزالي لم يقدر ان يستخرج النتيجة التي يستجرجها كل قارئ حياة المسيح في الانجيل بقصد الفائدة وهي ان الزهد الحقيقي في العالم لا يتأتى للانسان بالهروب من العالم وعيشة التنسك بل بخدمة الآخرين . ولذلك نجد ان المذهب الباطني انتج شرين كما قال الماجور دوري او سبرن . انه حفر هوّة بين اولئك الذين يقدرون أن يعرفوا الله وبين التائهين في الظلمة العائشين على قشور الطقوس والفرائض . وعلم الناس انه بالزهد في العالم زهداً تاماً يمكن للانسان ان يحصل على غاية وجوده العظمى . فأدى هذا الفكر بكثيرين من الراغبين في معرفة الله اما الى حياة الجولان في انحاء العالم والاعتزال في الصحاري او بانفاق حياتهم في حالة خشوع عديمة الجدوى متنكرين تحت ستار التأمل الروحي الذي يسمونه الذكر . هذا احد الشرين . وثانيهما فساد الناموس الادبي الذي هو نتيجة طبيعية لفكر الحلولية فان كان الله الكل في الكل وما شخصية الانسان الظاهرة الا وهم من اوهام قوى الحس والادراك ولكن ليس للانسان ارادة لها قوة على العمل ولا ضمير يوبخ او يستحسن الخ . . فان هذا التعليم قد ادى

الى دخول الوف من العاطلين الطائشين في صف الباطنيين ليتمتعوا بالاباحة وحياة الكسل وما كانت التقوى لهم الا لباس عارية يرتدون بها وهم تحت ستارها يرتكبون كل فظيعة ودنيئة وقد ميزوا انفسهم بالتخلص من الفروض الاسلامية وقطعوا بايديهم كل رباط ادبي . وهكذا ترى ان الحركة التي قصد بها في البداءة قصداً عالياً وشريفاً قد تحولت الى كسل وبطالة وعار على الدين والانسانية . والمجرى الذي قصد به أن يمتد ويمتلئ ويصير نهراً فائضاً بالخير والبركات تحول الى مستنقع مملوء بالجراثيم القتالة ومحاط بالابخرة السامة والامراض والموت الفتاك

هذا واني قد جمعت الاقوال المقتبسة من الانجيل بقدر الطاقة امام النصوص الاصلية ليرى القارئ ويحكم . ويرى المطلع على هذا ان الغزالي قد جعل اقتباسه من انجيل متى وبالاخص الموعظة على الجبل وانه يمكننا ان نضع الآيات مرتبة لان الغزالي لم يراع الترتيب في اقتباسه

احياء العلوم جزء ٣ وجه٢٠٣ سطر ٣٤ وتكررت في ٢٠٦	جاء في انجيل متى ٦ : ١٦ — ١٨
« قال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم اذا كان صوم احدكم	« ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين . فانهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين . الحق

فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس انه صائم »

« واذا اعطى بيمينه فليخف عن شماله »

« واذا صلى فليرخ ستر بابه فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق »

وفي جزء ١ وجه ٤٥ سطر ٢٤

« قال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء كمثل شجرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع »

اقول لكم انهم قد استوفوا اجرهم . واما انت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك . لكي لا تظهر للناس صائماً بل لابيك الذي في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية »

عدد ٣ و ٤ « واما انت فمتى صنعت صدقتك فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية »

عدد ٥ « فمتى صليت فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصلّ الى ابيك الذي في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية »

مت ٢٣: ١٣

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون »

« ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »

وفي جزء ١ وجه ٤٦ سطر ٢٤

«قال عيسى عليه السلام كيف يكون من اهل العلم من مسيره الى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من اهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به»

ثم انه يجعل الله يخاطب المسيح بقوله في جزء ١ وجه ٤٧ سطر ٣١

«وقال تعالى لعيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني»

عد ٢٧

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة هكذا انتم ايضاً من خارج تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثماً »

مت ١٩:٥ ومت ٣٣:٦

« فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات »

لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم

لاحظوا ان قول المسيح «من منكم يبكتني على خطية» يعلمنا ان الله لم يقل لعيسى عظ نفسك لان عيسى قدوس بار يعظ ولا يوعظ ولأنه الهادي

جزء ٣ وجه ٢٣٧ سطر ٦

قال المسيح عليه السلام .

„طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة „

متى ٥:٣—٩

«طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لانهم يتعزون طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض . طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون . طوبى للرحماء لانهم يرحمون . طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون»

جزء ٤ وجه ١٧٠ سطر ٢٥

„وقال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا استطيع . فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة او قال بشدة „

متى ١٩ : ٢١—٢٣

« قال له يسوع ان اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع املاكك. واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعالى اتبعني . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لانه كان ذا اموال كثيرة . فقال يسوع لتلاميذه الحق اقول لكم انه يعسر ان يدخل غني الى ملكوت السموات»

جزء ٤ وجه ٥٢ سطر ٢٠

متى ٥ : ٣٨—٤٢

,, رأيت في الانجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان السن بالسن والانف بالانف وانا اقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول اليه الخد الايسر ومن اخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرك لتسير ميلاً فسر معه ميلين ،،

« سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن . واما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضاً ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . ومن سألك فاعطه ومن اراد ان يقترض منك فلا ترده »

فمن يشك في ان الغزالي رأى الانجيل حسب قوله عن نفسه وانه اقتبس منه حرفياً حسب الترجمة التي كانت في حينه ؟ ولكن لا يفوتنا ان الغزالي لم يأخذ ما يخالف اسلامه ومع احتياطه فقد اعترف لنا بحقائق تؤيد المسيحية وتدعو الى المسيح وتوافق بعض روح الانجيل الشريف بلا قصد

وجاء في جزء ٣ وجه ٢٨٨ سطر ٣

وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر الى هذا المسجد ما احسنه فقال : امتي امتي الحق اقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر الا اهلكه بذنوب

متى ٢٤ : ١

,,فتقدم تلاميذه لكي يروه ابنية الهيكل . فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه الحق أقول لكم انه لا يترك حجر على حجر لا ينقض ،،

اهله . ان الله لا يعبأ بالذهب والفضة
ولا بهـذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً
وان احب الاشـياء الى الله تعالى
القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض
وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك،،

جزء ٣ وجه ١٣٩ سطر ٢٧

،،وقال عيسى عليه السلام . لا
تتخذوا الدنيـا ربآً فتتخذكم عبيـداً
اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه
فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه
الآخذ وصاحب كنز الله لا يخاف
عليه الآخذ،،

وقال عليـه افضل الصـلاة
والسلام : «يامعشر الحواريين اني قد
كبيت لكم الدنيـا على وجهها فلا
تنعشوها بعدي فان من خبث الدنيا
ان عُصِيَ الله فيها وان من خبث الدنيا
ان الآخرة لا تدرك الا بتركها

متى ١٩:٦ — ٢٢

،،ولا تكنزوا لكم كنوزاً على
الارض حيث يفسد السوس والصدأ .
وحيث ينقب السارقون ويسرقون .
بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء
حيث لا يفسـد سـوس ولا صدأ
وحيث لا ينقب سارقون ولا
يسرقون . لانه حيث يكون كنزك
هناك يكون قلبك،،

وفي لوقا ١٨ :٢٨—٣٠

« فقال بطرس ها نحن قد تركنا
كل شيء وتبعناك . فقال لهم الحق
اقول لكم ان ليس أحد ترك بيتاً او

فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا ان اصل كل خطيـة حب الدنيـا . حروب شهوة سـاعة اورثت اهلها حزناً طويلاً . وقال ايضاً بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعكم فيهـا الملوك والنسـاء فاما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهـم لن يعرضوا لـكم الدنيا ما تركـتموهم ودنياهم واما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة »

والدين او إخوة او امرأة او أولاداً من أجل ملـكوت الله الا ويأخذ في هذا الزمان اضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الابدية »

جزء ٣ وجه ١٤٠ سطر ٢٩

قال عيسى عليه السلام :

« لا يستقيم حب الدنيـا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يسـتقيم المـاء والنار في اناء واحد »

متى ٦:٢٤

« لا يقدر احد ان يخدم سيدين . لانه اما ان يبغض الواحـد ويحب الآخر او يلازم الواحـد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله والمال »

جزء ٣ وجه ١٨٢ سطر ٢٠

بلغنـا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال « يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعـلون ما

متى ٢٣:١—٢٧ « أنهم يقولون ولا يفعلون... لكي ينظرهم الناس... ويل لـكم ايها الـكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تغلقون ملـكوت

تعرفون وتدرسون ما لا تعلمون فياسوء ما تحكمون . تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم ان تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة. بحق اقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق وتبقى فيه النخاله كذلك انتم تخرجون الحكم من افواهكم ويبقى الغل في صدوركم ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت اقدامكم . بحق اقول لكم افسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا احب لكم من صلاح الآخرة فاي الناس اخسر منكم لا تعلمون . ويلكم حتى م تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها مهلاً مهلاً ويلكم ماذا يغني عن

السموات قدام الناس فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تأكلون بيوت الارامل ولعلة تطيلون صلواتكم لذلك تأخذون دينونة اعظم . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم اكثر منكم مضاعفاً... ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم اثقل الناموس الحق والرحمة والايمان . كان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . ايها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تنقون خارج الكاس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافاً ودعارة

البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم واجوافكم منه وحشة معطلة . يا عبيد الدنيا لا كعبيد اتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوءآتكم ثم يجزيكم بسوء اعمالكم »

ايها الفريسي الاعمى نقِّ اولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما ايضاً نقياً . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة هكذا أنتم ايضاً من خارج تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آبائنا ما كنا شاركناهم في دم الانبياء فانتم تشهدون على انفسكم انكم ابناء قتلة الانبياء . فاملأُوا انتم مكيال آبائكم . ايها الحيات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم »

جزء ٤ وجه ٣٣٠ سطر ٧

قال عيسى عليه السلام « لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فتأتي ارزاقكم مع آجالكم وان لم تكن آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز ساعة ».

متى ٦:٢٥و٣٤

لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس فلا تهتموا بالغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره .»

جزء ٤ وجه ١٩٠ سطر ١٤

قال عيسى « انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم فان قلتم نحن اكبر بطوناً فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق

متى ٦:٢٦

« انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد لا تجمع الى مخازن وابوكم السماوي يقوتها ألستم انتم بالحري افضل منها . تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها

جزء ٤ وجه ٢٠٥ سطر ٣١

قال عيسى عليه السلام : « لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده

متى ٥:١٠—١٢

طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السموات . طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا

وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه »

جزء ٤ وجه ٢٣١ سطر ٢٨

وفي اخبار عيسى عليه السلام

„ اذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه“

جزء ٢ وجه ١١٠ سطر ١٦

قال عيسى عليه السلام :

„وتحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا الى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم . قالوا ياروح الله فمن نجالس قال جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرغبكم في الآخرة عمله

جزء ٤ وجه ٢٥٦ سطر ٣٦

« روي ان عيسى عليه السلام قال لبني اسرائيل اين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق اقول لكم

عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين افرحوا وتهللوا لان اجركم عظيم في السموات

متى ٢٦ : ٤١

« اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة »

١ يو ٢ : ١٥ — ١٧

„ولا تحبوا العالم ولا الاشياء التي في العالم ان احب احد العالم فليست فيه محبة الآب لان كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة ليس من الآب بل من العالم والعالم يمضي وشهوته واما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت الى الابد

متى ١٣ : ٣ — ٩

« هوذا الزارع قد خرج ليزرع وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور واكلته وسقط

لا تنبت الحكمة الا في قلب مثل التراب

آخر على الاماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالاً اذ لم يكن له عمق أرض . ولكن لما اشرقت الشمس احترق واذ لم يكن له اصل جف . وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه . وسقط آخر على الارض الجيدة فاعطى ثمراً بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلثين »

جزء ٣ وجه ٢٤٠ سطر ٦

« قال المسيح عليه السلام . ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في القلب المتواضع ولا تعمل في القلب المتكبر»

متى ١٣ :٢٣

« واما المزروع على الارض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلثين

جزء ٣ وجه ٢٤٧ سطر ٣٧

قال عيسى عليه السلام : «ما بالكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري . ألبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم

متى ٧ :١٥

« احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم »

بالخشية وقل ايضاً جودة الثياب خيلاء في القلب

جزء ٤ وجه ٣٢٣ سطر ١٢
« وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً »

(ولعل الاشارة هنا الى آلام المسيح في جثسيماني حيث جاء في لوقا ٢٢:٤٥)
« اذ كان في جهاد عظيم كان يصلي باشد لجاجة . . وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الارض»

ويليق بنا ان نذكر ايضاً اقوالاً أوردها الغزالي منسوبة الى المسيح وان كانت ليست اقتباسات صريحة من الانجيل ولا اقتباسات محرفة ولكنها تدلنا على اعتقاد الامام وقومه في مقام المسيح المكين فقال في جزء ٤ وجه ٣٨٣ سطر ١٥ «قال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح غدا بين اطباق النار يصيح» وفي جزء ٣ وجه ١٤١ سطر ٢٧ «قال عيسى عليه السلام : من الذي يبني على موج البحر داراً ، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً» وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه قال ابغضوا الدنيا يحببكم الله تعالى »

وفي جزء ٤ وجه ٢٥٨ سطر ٢٢ «سئل عيسى عليه السلام عن افضل الاعمال فقال الرضا من الله تعالى والحب له »

وفي جزء ٤ وجه ١٤٨ سطر ٣٤ «وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه اني لأحب المسكنة وابغض النعماء وكان احب الاسامي اليه صلوات الله عليه ان يقال له يامسكين» (لانه عاش فقيراً لنغنى نحن بفقره ومات لنحيا بموته)

وفي جزء٣ وجه ٥٦ سطر ٢٠ «قال عيسى عليه السلام. يا معشر الحواريين جوّعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم»

وفي جزء ١ وجه ٤٨ سطر ١٥ «قال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت كذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الاشهاد»

وفي جزء ٣ وجه ٢٣٥ سطر ٢١ «قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علّمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً»

وفي جزء ٤ وجه ٢٦٠ سطر ٣٧ «قال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت الى غير إثم»

ووجه ٢٧٣ سطر ٢٧ «وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الاعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه احد»

ووجه ٣٠٥ سطر ٢٤ «قال الحواريون لعيسى بن مريم : ياروح الله هل على الارض اليوم مثلك . فقال نعم من كان منطقه ذكراً وهمته فكراً ونظره عبرة فانه مثلي» (ولكن لم يوجد مثل هذا البار والفادي)

وفي جزء ٣ وجه ٨٥ سطر ١١ «قال عيسى عليه السلام : من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه»

وفي وجه ٩٨ سطر ٣٧ «قال عيسى عليه السلام : ان من اعظم الذنوب عند الله ان يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام والاثم فيه عظيم . انه قال عليه السلام . ان من اعظم الفرية ان يدعى الرجل الى غير ابيه او يري عينيه في المنام ما لم ير او يقول عليّ ما لم اقل

وفي وجه ١٤٤ سطر ٣٤ «قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم»

وفي وجه ١٥٩ سطر ١٣ «يروى عن المسيح عليه السلام: اربع لا يدركن الا بتعب : الصمت وهو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء»

وفي وجه ١٦٤ سطر ٢٢ «وقال المسيح عليه السلام: بحق اقول

لكم انه من طلب الفردوس لخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير»

وفي سطر ٣٣ قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله»

(وهذا مكرر وهي عادة في الغزالي ان يكرر كثيراً لانه كان يكتب كثيراً ويقول كثيراً كما في المثل : من كثر عمله كثر خطاله)

وفي جزء ٣ وجه ١٢٧ سطر ١٤ «قيل مكتوب في الانجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان»

وهنا نذكر اقتباسات للامام الغزالي من الانجيل جاءت في مصنفاته الاخرى فجاء في كتاب كيمياء السعادة وجه ٥٢٠ سطر ١

«كل من زرع حصد ومن مشى وصل ومن طلب وجد» وهذا يقابل ما جاء في متى ٧:٧ «اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم . وجاء في كتاب (ايها الولد) وجه ١٠٢ سطر ١٤ «قوله اني رأيت في انجيل عيسى عليه الصلاة والسلام الخ» وفي ذات هذه الرسالة يقتبس من مثل الغني ولعازر الوارد في انجيل لوقا ١٦: ١٩ — ٣٢ فيقول في وجه ١٠٤ سطر ٥ «ان أمنية أهل النار عند أهل الجنة هي: افيضوا علينا من الماء اومما رزقكم الله» وفي ذلك مشابهة لقول الغني في المثل

لابرهيم «يا ابي ابرهيم ارحمني وارسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لساني لاني معذب». وفي وجه ١١٧ سطر ٤ يقول «قال عيسى عليه السلام اني ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت من معالجة الاحمق» ثم انه يقتبس القانون النهبي في اماكن كثيرة دون ان يشير الى ان الانجيل مصدره كقوله في وجه ١٢٢ «كل ما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم»

ثم ان ما جاء به الغزالي في رسالة القواعد العشر عن محبة الله لا يترك ادنى شك في فكر القارئ المنصف ان الغزالي قد قرأ العهد الجديد ومجرد ذكرها هنا بالاختصار يثبت لكل منصف صحة قولنا (١) النية الصادقة (٢) العمل لله من غير شريك ولا اشتراك (٣) موافقة الحق بالاتفاق والوفاق (٤) العمل بالاتباع لا بالابتداع (٥) الهمة العلية المجردة عن تسويف يفسد (٦) العجز والذلة لا بمعنى الكسل في الطاعات وترك الاجتهاد (٧) الخوف والرجاء (٨) دوام الورد اما في حق الحق او حق العباد (٩) المداومة على المراقبة ولا يغيب طرفة عين عن الله تعالى (١٠) علم يوجب اشتغالاً به ظاهراً وباطناً اجتهاداً

ومن يدقق النظر في مصنفات الامام الغزالي يجد فرقاً عظيماً بين عقائده الدينية التي يجعلها مطابقة للقرآن طبعاً وضرورةً وبين

افكاره الشخصية كمتصوف يسبح في عالم التأمل ويكشف عن عينيه ليرى الغير المنظور وكأنه بهاتين الحالتين يذكرنا بقول انسليم «اني لا احاول يا رب ان ادخل في اعماقك لان عقلي لا يستطيع ذلك بل اني ارغب من كل جوارحي ان افهم شيئاً من حقك الذي يؤمن به قلبي ويحبه لاني لا ابحث لافهم حتى أومن ولكني أومن لافهم» فلما يتكلم الغزالي عن قرب الله منا ورغبة النفس في الشركة مع الله نجده يقترب جداً من فكر التجسد المسيحي ولكنه لا يفصح ولا يجلو حقيقة ما يدور في خلده

فالغزالي ولا شك رأى القول الوارد في الكتاب المقدس «الله لم يره أحد قط» ولكنه تجاهل باقي العبارة وهو «الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر»

وما اقرب بعض اقواله التي يمنعنا من سردها خوف التطويل الى كلمات المسيح «طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله» نعم وان معاينة الله هي التي اشتاقت اليها نفس الغزالي وحسبها اسمى خير في هذه الحياة والحياة الاخرى ومع كل ما بذله من المجهود في ايضاح هذه المسألة والكلام عن طبيعة النفس وطبيعة الله فانه يعترف انه كواقف امام حائط لا يدري ما وراءه . ومع رغبته القلبية ان يعاين الله فانه لم

يقدر ان يتخلص من الفكر بان الله لا يمكن ان يعرف وان لا شيء في المخلوقات كمثل الله . وقد قال محمد اقبال في كتابه «علم تقدم ماوراء المادة» وجه ٧٥ «انه الى اليوم لم يقم انسان يبين لنا بالضبط حقيقة افكار الغزالي عن طبيعة الله فقد جمع في نفسه آراء الحلولية وآراء الاشعرية فالنفس حسب قول الغزالي ترى الاشياء ولكن الرؤية صفة لا توجد الا في الجوهر الخالي من كل صفات الجسم والمادة وقد اوضح الغزالي ذلك في كتابه المضنون بقوله «لم منع الرسول عليه السلام عن افشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى قل الروح من أمر ربي. فقال لان الافهام لا تحتمل لان الناس قسمان عوام وخواص اما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبله ولا يصدقه في صفات الله تعالى فكيف يصدقه في حق الروح الانسانية» وهكذا يتقدم الغزالي في البرهان ان يزيد المسألة اشكالاً ويتركها بدون حل (! !)

الى هنا رأينا افكار الغزالي بخصوص اقوال وتعاليم ربنا يسوع المسيح وحياته وصفاته وافكاره عن علاقة الله بنا ومحبته لاولئك فهل هؤلاء يطلبونه من كل قلوبهم. الذين يحبونه هم من المسلمين فقط ؟ الا توجد محبة أوسع لله ؟ أليس كل الانفس في حفظ الله ؟

وما معنى افكار الغزالي بخصوص خلاص اولئك الخارجين عن
الحظيرة الاسلامية ؟ جاء عن الغزالي فكران متناقضان يظهر ان كل
واحد منهما كتب في زمن بعيد عن الآخر فالفكر الاول هو ما
ورد في وجه ٢٣ من كتابه «فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة»
سطر ١١ قوله «بل اقول ان اكثر نصارى الروم والترك في هذا
الزمان تشملهم الرحمة ان شاء الله تعالى اعني الذين هم في اقاصي الروم
والترك ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة اصناف صنف لم يبلغهم اسم محمد
صلى الله عليه وسلم اصلاً فهم معذورون . وصنف بلغهم اسمه ونعته
وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون
لهم وهم الكفار الملحدون . وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم
محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا ايضاً منذ
الصبا ان كذاباً ملبساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا ان كذاباً
اسمه المقفع لعنه الله تحدى بالنبوة كاذباً فهؤلاء عندي في معنى الصنف
الاول فانهم مع انهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضد اوصافه وهذا لا يحرك
داعية النظر في الطلب» وهذا كلام يستحق التأمل لانه في ذات هذا
الفصل في وجه ٢٢ سطر ١١ يقول «قال عليه السلام يقول الله تعالى
لآدم عليه السلام يوم القيامة يا آدم ابعث من ذريتك بعث النار فيقول

يا رب من هم . فيقول من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين . وقال عليه الصلاة والسلام ستفترق امتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة » .

على ان الغزالي في الوجه الاخير من كتاب احياء العلوم الجزء الرابع يقول بدخول كل مسلم الجنة مهما كانت صفاته وحياته ثم يقول تأييداً لذلك حديثاً عن النبي (ص) « قال لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله تعالى مكانه النار يهودياً أو نصرانياً » ويرى الغزالي ان التعليم بالنيابة هذا مرضي لدى الله حتى ان جهنم ستمتلئ بهؤلاء النواب المساكين (ولو أنصف لعلّم بنيابة المسيح الكفارية)

فنستغرب للغاية ان اماماً مثل الغزالي حجة الاسلام باقواله المذكورة يفتح باب الجنة لقوم ليس لهم التوبة الحقيقية التي بدونها لا يمكن الحصول على الغفران وما أبعد تعاليمه عن دخول الجنة بنيابة اليهود والنصارى عن تعاليمه السامية في كتاب التوبة (احياء علوم الدين جزء رابع وجه ٨ سطر ١٤) حيث يقول « ان التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم لان كل بشري لا يخلو من معصية بجوارحه اذ لم يخل عنها الانبياء كما ورد في القرآن والاخبار عن خطايا الانبياء وتوبتهم

وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا في بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله. فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وافعاله وكل ذلك نقص والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص. انما يتفاوتون في المقادير فاما الاصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام (يعني نبي المسلمين) «انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» ولذلك اكرمه الله بان قال «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» واذا كان هذا حاله شخصياً فكيف حال غيره؟

ومن نشاء زيادة الايضاح فليرجع الى موضوع التوبة في الفصل السابع من كتابنا هذا ويتأمل فيه ليرى ما قاله الامام الغزالي عن طبائع البشر وعن ضرورة التوبة ولزومها لكل نبي وولي ما عدا شخصاً واحداً هو المسيح رب المجد لان مصدره سمائي فلم يتلوث بطبيعة آدم الفاسدة. وعلى هذا فهو الشخص الوحيد الذي يمكن ان نثق به ونلقي كل همومنا عليه ونتوب اليه ونؤمن به ونقبل خلاصه بفرح وخشوع وايمان واخلاص م؟

المحب

الدكتور صموئيل زويمر

الخاتمة

(المسلم استهدى فاهتدى ، وسلك سبيل الهدى ، فحصل على نعمة الفدا)

لقد رأيت من سياق ترجمة حياة هـذا الامام ، الذي هو حجة الاسلام ، ما حير الافهام ، واذهل العلماء والعوام ، وأدهش الخاص والعام ، من هاتيك الايام ، رأيت الامام الغزالي في ما اقتبسه من مشايخه المعاصرين والمتقدمين ، رأيته في ما أخذه من الاحاديث الشريفة النبوية ، ومن الآي الكريمة القرآنية ، فماذا رأيت ؟ رأيت فيه مسلماً مؤلفاً عالماً لسناً فاق كثيرين جداً من أعاظم المؤلفين المسلمين ، ورأيت فيه بطلاً مقداماً ، ومصلحاً هماماً ، خاض بجراءة عجيبة وشجاعة أدبية واخلاص تقوي صحيح — ولكن فيم خاض ؟ ... خاض في ما يتعلق بمطالب حياة الرجل والمرأة اجمالاً وتفصيلاً كشيء عادي امتزج بعقله وروحه ودمه وآدابه بصفة كونه عالماً تقياً مسلماً . فذكر كل شيء من قبيل الحياة الزوجية والمعاشرة ونحو ذلك بكل حرية وبدون خجل . ولماذا ؟ لانه لم يذكر شيئاً كهذا الا اقتداء بالشرع الشريف وبضمير سليم فليس عليه في هذا من حرج لانه من القائلين : (لا حياء في الدين !!).

واما من جهة روحانية الامام شخصياً فقد رأيته مؤلفاً صوفياً غيوراً مصلحاً ، ورأيته اديباً فاضلاً ارتقى في آدابه وفضائله حتى تساوى مع مصادر ايمانه ومزج مواهبه بها ، ورأيته لا يستحي من ايراد الحقائق الموافقة لارادة الله وقداسته من اي مصدر كانت ولو من نصوص الانجيل كما مرّ بنا في فصول هذا الكتاب ، ولكن ليس الى الدرجة المطلوبة . وفضلاً عن هذا فقد رأيته روى عن الانجيل باحترام ، لا يقل عن احترامه لنصوص القرآن بالتمام ، ورأيته ذكر سيدنا عيسى المسيح ، بتبجيل لائق بسموّ مقامه وبطهارة دينه الصحيح ، بمقدار ما بجلَ به القرآن عشرات المرات ، كما كتب في كثير من المؤلفات ، ورأيت هذا الامام فاضلاً عصامياً لم يكترث بمختلف آراء الغير في ما أورده من احكام العلوم ، ورأيته فيلسوفاً ذكياً حقق في كل مجهول ، ودقق في كل معلوم ، وأجاد في كل معقول ، وأفاد في كل مفهوم ، ورأيته صوفياً مخلصاً غيوراً تقياً عزفت نفسه عن الدنيا زهداً وورعاً وتعبداً فاطنب في الثناء الجم على الصوفية والصوفيين ، وذكر لنا انهم هم الاتقياء السالكون لطريق الله ، وان سيرتهم احسن السير ، واخلاقهم ازكى الاخلاق ، وانهم هم العشاق ، الذين جابوا الآفاق ، مستنيرين بنور الخلاّق ،

متكلين على الرزاق ، وذكر لنا في موضوع التصوف ان تطهير القلب عن كل ماسوى الله باريء الكائنات ، يؤدي الى المكاشفات، وان استغراق القلب بذكر الله يؤدي الى المشاهدات ، وان الفناء في الله يؤدي الى الوصول الى اسمى الحالات ، فالى الاتحادات ، فالى الامتزاجات ، ولو كان قد تقدم في شجاعته الادبية خطوات اخرى لحصل لنفسه على نعمة الفداء ، وشهد بنيله درجة الوصول فالاتحاد فالامتزاج بكل تأكد وثقة ويقين

وبما انه لم يتقدم فهو لم يحصل على شيء ولذلك لم يذكر شيئاً .
ورجاؤنا وطيد في الله ان يكون الامام الغزالي مثل نيقوديموس عالم أمة اليهود (الذي آمن بالفادي سراً وذهب اليه ليلاً) في ايمانه بالفادي على الاقل حتى لا يكون قد مات محروماً من نعمة الفداء العظمى لان وقوفه من جهة ذكر الوصول تصريحاً أو تلميحاً هذا الموقف المبهم أكد لنا عدم وصوله . لا ريب ان هذا الامام قد تعطش كثيراً (على ما يظهر من كتبه وخصوصاً الاحياء والمنقذ من الضلال) الى الوصول الى الله والاتحاد به والامتزاج فيه لان روحانية حياة هذا الفاضل وتقواه واعترافاته الصريحة كل ذلك يدلنا على انه كان أهلاً للتعطش الى الوصول الى الله وانتظار هذا الوصول ، ومما يؤيد

هذه النظرية في شخص الامام الغزالي انه رضي الله عنه كان مغرماً بذكر التوبة وتغلب الروح على الجسد في اكثر مؤلفاته الجليلة وكما أشار جناب الدكتور زويمر مؤلف هذا الكتاب في أواخر الفصل السابع ، وكما قال الاستاذ عبد الفادي القاهراني في محاضرته عن الغزالي (١)

ولقد جعلت الكلام عن التوبة هنا غرضي الاكبر لشدة حاجة العالم الشرقي عموماً والقطر المصري خصوصاً الى التوبة الحقة القلبية . فان الغزالي رضي الله عنه جعل التوبة (مع اهتمامه العظيم — وبكل اسف) كالثوب النظيف يجره صاحبه على الارض وعلى القذارة ثم يغسله بالصابون والماء فيعود الى النظافة الاولى كما كان على مر الايام والسنين . فكأن التوبة كانت في نظره ونظر الوسط الذي عاش فيه كالحذاء القديم يُفتقُ فيُرتق من يوم الى يوم الى ان يبلى ، وكان الامام يعظم الأوابين ويزداد بهم سروراً ويترنم بقول القرآن الكريم : «انه كان للأوابين غفوراً» ، ويقرأ باعلى الاصوات ، : «الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات»

(١) تطلب هذه المحاضرة من مطبعة النيل المسيحية ومن جميع موزعينا في الجهات وثمنها ٥ مليمات فقط واقتناؤها ضروري لكل باحث مفكر

ومع ذلك نرى الامام يعلمنا بلا قصد ان التوبة هي في الليل انحدار، وفي النهار استغفار، لان الله رحيم غفار، يتوفاكم في الليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ويأتي بجميع المؤمنين الى الجنة ولو كانوا زعماء الاشرار، وقوّاد الفجار، ويأتي باليهود والنصارى الى النار، ولو كانوا من أبرّ الابرار، وهذه النظرية المعكوسة وقع فيها كثيرون غيره من العلماء والأدباء فضلوا وأضلوا غيرهم ولذا فقد دفعني هذا الى تبيين الفرق بين التوبة التي اتانا بها الامام الغزالي والتوبة التي اتانا بها كتاب الله المقدس الطاهر بل التي يطلبها الهادي الفادي سبحانه وتعالى من عباده وهذا يظهر من الجدول الآتي :—

التوبة التي أتانا بها الغزالي	التوبة التي أتى الينا بها الله في كتابه المقدس
«فمن يتوهم أن التوبة لا تصح ولا تُقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لايزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول» (الاحياء ج ٤ وجه ١١)	«مزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم لانه رؤوف رحيم». (يوئيل ٢: ١٣)
«ان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة... كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون	«ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امح معاصيّ. اغسلني كثيراً من اثمي ومن خطيتي.

التوبة التي أتانا بها الغزالي

وكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك فالقلب المظلم لايقبله الله وكما ان استعمال الثوب في الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما ان كل ثوب نظيف فهو مقبول» (الاحياء ج ٤ وجه ١٠)

التوبة التي أتى الينا بها الله في كتابه المقدس

طهرني. لاني عارف بمعاصيَّ وخطيتي امامي دائماً . اليك وحدك اخطأت والشر قدام عينيك صنعت لكي تتبرر في اقوالك وتزكو في قضائك . هأنذا بالاثم صوّرت وبالخطية حبلت بي امي. ها قد سررت بالحق في الباطن ففي السريرة تعرفني حكمة . طهرني بالزوفا فأطهر اغسلني فابيض اكثر من الثلج. أسمعني سروراً وفرحاً فتبتهج عظام سحقتها . استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي. قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي. لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني . ردّ لي بهجة خلاصك وبروح منتدبة اعضدني . فاعلّم الأثمة طرقك والخطاة اليك يرجعون . نجني من الدماء يا الله إله خلاصي . فيسبح لساني برك . يا رب افتح شفتي فيخبر فمي بتسبيحك .

التوبة التي أتانا بها الغزالي

«يروى ان الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه. وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ . . . وانزل قوله تعالى «انه كان للأوابين غفوراً» في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب الخ الخ» (الاحياء ج٤ وجه ١١)

التوبة التي أتى الينا بها الله في كتابه المقدس

لانك لا تسر بذبيحة والا فكنت اقدمها. بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مزمور ٥١)

«ان اعترفنا بخطايانا فهو امين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم (١ يوحنا ١: ٩)

«الذين استنيروا مرة وذاقوا الموهبة السموية وصاروا شركاء الروح القدس وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوات الدهر الآتي وسقطوا لا يمكن تجديدهم ايضاً للتوبة اذ هم يصلبون لانفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه لان أرضاً قد شربت المطر الآتي عليها مراراً كثيرة وأنتجت عشباً صالحاً للذين فلحت من اجلهم تنال بركة من الله ولكن ان أخرجت شوكاً وحسكاً فهي مرفوضة وقريبة من اللعنة التي نهايتها للحريق» (عبرانيين ٦: ٤—٨)

من التأمل في هذا الجدول البسيط ترون فرقاً ظاهراً بين روح استصغار شأن التوبة والاستهانة بها حسب نظرية الامام الغزالي التي سمحت للانسان ان يذنب ثم يتوب مئآت المرات وعلمت ان الله لا يحجب التوبة عن الانسان ما دام فيه الروح، وبين روح استعظام شأن التوبة واكرام مقامها وموقفها المهوب الطاهر حسب تعليم الكتاب المقدس وحسب تعليم المسيحيين بالحق. ولكن لا يفوتنا ان الغزالي لم ترتفع روحانيته في التعليم عن التوبة عن ذلك المستوى الا حينما كان يسلك بنور اجتهاده الشخصي متجنباً الاقتباسات والروايات غير قائل قال الله ولا قال صلى عليه وسلم، ولا قال فلان عليه السلام، ولا قال فلان أو فلان من المشايخ الكرام، بل كرجل عصامي حرّ بعيد عن الارتباكات الملومة التي وقع فيها غيره من المؤلفين والفقهاء قال :—

« اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة — « علم وحال وفعل » — فالاول موجب للثاني والثاني موجب للثالث ايجاباً اقتضاه المرادسنة الله في الملك والملكوت . . « اما العلم » فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف

على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً (أي حال الندم) فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى عليه انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً الى «فعل» له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً . واما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر . واما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلاً للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن تأكد هذا التصديق بان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الايمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها » (احياء علوم الدين ج ٤ وجه ٣) فما اكبر الفرق بين رأيه المنقول ورأيه المعقول !! .

وبما ان الغزالي لم يذكر لنا انه اقتبس شيئاً من هذه الاقوال فماذا يكون امره ؟ هل هو مقتبس لم يذكر من اين اقتبس ام هو

بالحقيقة لم يقتبس شيئاً ؟ وان كان لم يقتبس شيئاً فهل هو مخطئ ام مصيب في اقواله هـذه ؟ وان كان مصيباً في ما قال فهل هو مجتهد حصل على ما حصل عليه بقوة علمه ام قال هذه الاقوال صدفة واتفاقاً ام اوحي اليه بوحي خاص ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك فانه وان كان مجتهداً غيوراً ومعلماً صبوراً الا انه نظراً لاحترامه الخاص لانجيل المسيح الطاهر ولكثرة معرفته بمبادئه الشريفة ولمداومة اطلاعه عليه وقراءته فيه بالاكرام والخشوع عثر على مثل الابن الضال المذكور في لوقا ١٥: ١١—٣٢ فاستوعبه جيداً واستفاد مما حواه . وعند ما كتب في موضوع التوبة مر بخاطره ما كان قد استفاده فاندفع الى التعليم بما ورد على خاطره دون ان يلتفت الى المصدر ولكن كتابته كانت كشرح جليّ لمثل الابن الضال. والدليل على ذلك ان الامام عرّف التوبة بأنها — «علم وحال وفعل» وشرح هذا التعريف كما مر بنا. ولذلك اقول ان الامام الغزالي رضي الله عنه قصد «بالعلم» الشعور بفظاعة الخطية وظلمتها، ومعناه أنّ الابن الضال ظل جاهلاً نفسه مبذراً امواله بين السكيرين والزواني الى ان نفد منه المال وانفق آخر درهم وعندئذ شعر بحرج مركزه ودناءة حياته وفظاعة خطيته وكان الباعث له على هذا الشعور الذي هو «العلم» بحالته هو الجوع اخيراً وقصد «بالحال» انتقال الابن الضال

انتقالاً عملياً من حال الغنى الى حال الفقر، ومن حال السيادة الى حال العبودية، ومن حال التفاف المرائين الخادعين النصابين (الاوانطجية) حوله والائتمار باوامره والانتهاء بنواهيه لاجل سلب امواله بالاحتيال والى حال وجوده تحت رآسة تاجر الخنازير راعياً لها بنصف بطنه اجرة حيث كان يشتهي ان يملأ بطنه من الخرنوب الذي هو طعام الخنازير ولم ينل مشتهاه (ويقال لحال الابن الضال بين الخنازير في الحقول والجبال جائعاً عارياً حافياً ذليلاً متفكراً حال الندم اي الحزن على الخطية) وقصد «بالفعل» رجوع الابن الضال الى نفسه اولاً، وسفره ورجوعه الى ابيه ثانياً. فان الابن الضال رجع بالفعل الى نفسه وقال: «كم من اجير لابي يفضل عنه الخبز وأنا اهلك جوعاً؟ اقوم واذهب الى ابي وأقول له يا أبي اخطأت الى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن ادعى لك ابناً اجعلني كأحد اجرائك» ثم رجع الى ابيه «واذ كان لم يزل بعيداً رآه ابوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله. فقال له الابن يا أبي اخطأت الى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابناً» وهذا هو الفعل الذي عبروا عنه بتغيير القصد فمن العلم الذي هو الشعور ومن الحال الذي هو حال الندم والانتقال العملي الى مثل حال الابن الضال بين الخنازير ومن الفعل الذي هو الرجوع

الى الله قلباً وقالباً تكوّنت التوبة الحقة التي أشار اليها الغزالي ولذلك «قال الأب لعبيده أخرجوا الحلة الاولى وألبسوه واجعلوا خاتماً في يده وحذاء في رجليه وقدموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح لان ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد» فظهر ان الذي كان خاطئاً عرياناً من كل بر أصبح بالتوبة الحقة التي علّم بها المسيح (واستفاد منها وأفاد بها الغزالي وغيره) متسربلاً بثياب الطهارة والعفة متختماً بخاتم الصلح والاتحاد مع الله محتذياً بحذاء استعداد اخبار النعمة المفرحة موضوعاً بذراع المراحم الابوية فوق المتكإ الاول في وليمة الافراح الروحية . فلم يكن الغزالي في هذا الموقف الا شاهداً لحق المسيح الخلاصي في الوسط الذي عاش فيه وبين ابناء عصره — وكانت شهادته بغير قصد — متمنياً ان يكون بالحقيقة ذلك الابن الضال ليحصل على السعادة

ان الوقوف عند حد التوبة وحدها لا يسمن ولا يغني من جوع . فان المسيح له المجد قرن التوبة بالايمان فلم يفصل احدهما عن الآخر بل قال : «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل» (مرقس ١:١٥) فذكر التوبة والايمان وانجيل الخلاص والحياة المقدسة ، وعلى هذا فلا يمكن ان تكون التوبة كاملة وصحيحة

الا اذا كانت مصحوبة بالايمان بالفادي المجيد ومصحوبة بالحياة الطاهرة الصالحة النقية المقدسة . وكما ان نطق المسيح الكريم علمنا ان التوبة لا تصح بدون الايمان هكذا علمنا الرسول يعقوب بالروح القدس ان الايمان ايضاً لا يصح بدون الحياة المقدسة المملوءة من كل بر وصلاح (رسالة يعقوب ص٢) فمن تاب ولم يؤمن فتوبته باطلة، ومن ادعى انه تاب وآمن ولم يظهر لايمانه الثمر المطلوب، الذي هو العمل الصالح المشار اليه في رساله يعقوب، والذي هو ربح النفوس والذي به يتمجد الله كما اشار اليه المسيح في يوحنا ص ١٥ فلا فائدة في ايمانه لان ايمانه يكون والحالة هذه ميتاً . ومن تاب وآمن وعمل ما يرضي الله فقد صحت توبته وايمانه ونجا بحياته ونال غفران الله (راجع رومية ص٦) ولا ننسى ان نذكر القراء بقول ربنا الفادي سبحانه وتعالى : «من ثمارهم تعرفونهم» . وها كم مثالين للتوبة الحقة :

الاول — داود النبي والملك الذي قبل التوبيخات خاشعاً خاضعاً امام الله ولم يستعف منها ولم يعتذر، واحتمل التأديبات ولم يتذمر، بل قابل التوبيخات الواضحة الجارحة بقوله: «اخطأت الى الرب» وصبر على (١) موت الولد المحبوب ثمر خطيته (٢) مقابلة ما فعله هو سراً بما فعله أبشالوم ابنه في بيته جهراً (٣) توقف الفتوحات الحربية لانه

بخطيته جعل اعداء الرب يشمتون . ونطق بمزمور ٥١

والثاني بطرس الرسول الذي انكر سيده فنظر اليه المسيح له المجد نظرة توبيخ فشعر بفظاعة خطيته وطارده ضميره فخرج الى خارج وبكى بكاء مراً وظل حزيناً الى ان ظهر له المسيح بعد ان قام من الموت الكفاري وشفق عليه وقبل توبته واعاده الى مركزه بين المؤمنين فتغيرت حياته وظهرت مواهبه بعد حلول الروح القدس يوم الخمسين . ويوجد مثال ثالث هو : «نيقوديوس والغزالي» وامثال هذين كثيرون في ايامنا فنسأل الفادي ان يتشجعوا حتى ينالوا التوبة الحقة والايمان بالفادي المخلص ، وادعوكم الى التوبة والايمان وحياة القداسة لعلكم تَقبلون والى معرفة المسيح تُقبلون ؟

اسكندر عبد المسيح الباجوري

المؤلف التبشيري

مزمور توبة داود عليه السلام

١ مثل عظيم رحمتك يا خالقي ارحمني
ومثل فرط رأفتك أمح الخطا عني
اغسل كثيراً جسدي والنفس من ذنبي
وهكذا خذ بيدي مطهراً قلبي

٢ اني بإثمي عارفٌ معترفٌ جهراً
وهو امامي واقفٌ أنظره الدهرا
اخطأت مذنباً اليك بالقول والفعل
والصفح ما بين يديك يا رب فاصفح لي

٣ اشبع عبيدك الحقير يا رب بالسرور
فيفرح القلب الكسير بلطفك المشهور
قلباً نقياً طاهراً اُخلقه بي ربي
وروح عدل ظاهراً جدده في قلبي

آمين

(تم)


Bibliotheca Alexandrina
04198816